دراسات في
شعر سعاد الصباح

التمرد

في شعر

سعاد الصباح

أ. نجوى حسن
أ. فضل الأمين
د. مها خير بك ناصر

التمرد في شعر سعاد الصباح

أ. نجـــوى حســـن
أ. فضـــل الأمـــين
د. مها خير بك ناصر

سعاد الصباح

مقدمة

د. سمير سرحان

سعاد الصباح

تبرز سعاد الصباح بقامتها الشامخة في عالمنا العربي المعاصر أديبة متميزة في شعرها ونثرها فضلاً عن تميزها في مواقفها الإنسانية والوطنية والثقافية.. فهي قد كتبت الشعر.. كما كتبت النثر.. وكتبت الدراسات العلمية كما كتبت في القومية والوطنية..

غمست سعاد الصباح قلمها في مداد من قلوبنا.. ومشاعرنا.. آمالنا وأحلامنا.. لحظات الإحباط الهائلة العظيمة فينا.. ولحظات الفرح الغامر والنشوة الهائلة في قلوبنا، فعبرت دائماً عن مكنون مشاعرنا.. وعن كل قضايانا.. رجالاً ونساء.. فلم يقتصر شعرها علي التعبير عن مكنون المرأة.. عقلها وروحها.. وإنما عبّرت أيضًا عن الرجل.. فليس شعرها من قبيل الشعر النسائى ، وإنما هو شعر عظيم وكفى.

سعاد الصباح.. منذ أن غمست القلم في مداد المشاعر الإنسانية الرقيقة الجياشة حيناً بالفرح، وبالغضب حيناً آخر، لم تكن تعبّر فقط عن المرأة.. عن كل ما يجول داخل قلبها وعقلها من أسرار.. وإنما كانت تعبّر أيضًا عن الرجل الشرقي بكل ما يحمله علي كتفيه من تراث العنجهية والتعالى وثقافة القبيلة.. كما تحدثت أيضاً عن مشاعر الرجل ليس فقط تجاه الأنثى.. وإنما تجاه الموقف الإنسانى الواحد.

خاضت سعاد الصباح منذ البداية حربها الشعرية بأسلحة الوزن والصورة الشعرية المفاجئة والجديدة، البسيطة والمركّبة في آنٍ واحد، وبتركيب القصيدة المحكم، وباللغة السهلة والمفردات الساحرة التأثير النافذة دائماً كالسهم.. في أعماق القلوب.. وبصوتها الشعري القوي المتجدد الذي يقول هأنذا أحمل إليكم لغة شعرية جديدة.. تعبّر عن مشاعر جديدة.. في عالم جديد..

خاضت سعاد الصباح منذ البداية بهذه الأسلحة الشعرية الحرب دائماً ضد القبيلة.. لا قبيلتها فقط.. وإنما قبيلة العرب أجمعين.. وقبائل العرب لا تعرف سوى قانون الرجل.. وتعتبر خروج نساء القبيلة على هذا القانون.. نوعاً من التمرّد غير المقبول ولا المحمود..

وهكذا كان على سعاد الصباح أن تعود إلى صفوف الرجال في القبيلة.. وأن تخنق صوتها الشعري الذي يعبّر عن جموح العاطفة وقوّة المشاعر ورهافة الإحساس.. لكنها عملت وبإصرار وعزيمة لا تلين علي أن تكسر قانون القبيلة لتصبح ذاتاً متفردة ونسيجاً وحدها.. يرتفع صوتها في كل مكان تطالب باحترام عقلها.. واحترام قلبها.. واحترام إنسانيتها.. وألا ينظر أحد إليها كما ينظر إلى إحدي نساء القبيلة.. جسداً جميل التكوين أو وجهاً رائع القسمات.

وعندما فقدت سعاد الصباح وطنها، لأشهر طالت أو قصرت، ناضلت وكافحت كأعتى الرجال، وتجاوز حبّها مشاعرها الشخصية ليحتضن كل ذرة من تراب الوطن السليب.. وعندما كتبت **هل تسمحون لي أن أحب وطني** كانت رمزاً للوطنية الكويتية بل وللوطنية العربية الخالصة في أعظم وأعلي تجلياتها.. بل إنها مثل شاعر السيف والقلم محمود سامي البارودي جمعت بين أبياتها المشحونة بحب الوطن ولوعتها علي استباحته من جانب المعتدي، وبين النضال الحقيقي علي أرض الواقع، فأخذت تقود المظاهرات في ميادين العالم تنادي بالحق في الوطن.. وفي الصلاة علي ترابه.. وتدين البغي والظلم والطغيان.

إن سعاد الصباح، التي تعتبر في طليعة شاعرات العرب، بدأت حياتها الشعرية بصوت رومنسي لكنه متمرد.. رفضت للفتاة العربية أن تكون مجرد وجه أو جسد جميل.. رفضت مواضعات فرضتها عليها التقاليد الصارمة التي سلبتها إنسانيتها وحوّلتها إلي مجرد فرد من الدرجة الثانية في جماعة يحكمها الذكور، تلتزم بما تقوله الجماعة وتفعل كما تؤمر.. واكتشفت من خلال روحها الشاعرة ضرورة تفردها.. فتفردت.. وأصبحت صوتاً قوياً أصيلاً فريداً يعبّر عن العصر بكل مفرداته..

د. سمير سرحان

الثورة والتمرد
فى شعر سعاد الصباح

أ. نجوى حسن

الثورة والتمرد
فى شعر سعاد الصباح

الأدب الرومانسى أدب ثائر متمرد منبثق من الآه التي تجرح الفؤاد . رغم أنه نادى بإعلاء القيم الفردية والذاتية . إلا أنه وُصف بأدب الثورة . فالثورة هي منهجه وروحه وخاصة للمبادئ الإنسانية . فالثورة عنده أبدية غايتها المثلى إقرار حرية الفرد في المجتمع . وقد أثبت التاريخ مدى التصاق الكتاب الرومانسيين بالواقع وانصهارهم بالمجتمع فهم بعيدون كل البعد عن الفوقية والقوقعة ضمن الأنا الشاعري وجلوسهم في الأبراج العاجية والابتعاد عن الإنسان . ولا يمكن تجاهل الدور الإيجابي الذي يلعبه الكتاب الرومانسيون في التأكيد على المبادئ الإنسانية والإجتماعية فمنهجهم الإنساني دائمًا يصحح العلاقة بين الفرد والمجتمع وبين الفرد والموضوع ويؤكد على أهمية الإنسان كهدف بحد ذاته . وذلك بمهاجمة التقاليد ، والعادات البالية والمتجمدة والتي تصطدم بالمواقف الإنسانية . وبهذا يحاربون كل النظم الفاسدة والأعراف المتقوقعة الجامدة . إذن هو لخدمة الإنسان والإنسانية . بينما نرى فى الأدب الكلاسيكى تخليدًا للعادات والتقاليد والمحافظة على القديم بكل أشكاله .

أكان يخدم الإنسانية أم يعود بها إلى الوراء . . فهو أدب الرتابة والسكون لا تجدد فيه ولا حيوية ودائمًا يعيش وقته وعصره بنفس وعقلية الأسلاف القديمة .

لكل ثورة قائد مناضل جريء وغالبًا ما يكون الضحية قبل انبلاج الثورة . ودائمًا يكون المرمى والهدف . وثورة سعاد الصباح لتحرير المرأة هي دليل جريء يوجهه الدور الإيجابي الذي يتخذه الأدب الرومانسي وسيلة جريئة لقلب كل المفاهيم البالية وتصحيح الأضواع الخاطئة . بقلم امرأة ذكية ناضجة نذرت نفسها وقلمها وإبداعها لقلب الواقع المرير . لنبدأ معها بقصيدة الأنثى 2000 .

ترفض المرأة الشاعرة أساليب الغزل الرخيص والخنوع والتخاذل لدرجة احتساء القهوة في الفراش ، ترفض أسلوب المرأة المستسلمة للأنوثة، همها الوحيد التكحل والتحميص تحت الشمس والثرثرة على الهاتف والتزين بالياقوت والفيروز والتفرغ للأضواء واللهو دون أي شعور بقيمة الوقت والأيام وآثار البصمات . في الوقت الذي كان بوسعها أن تكون ملكة تأمر وتنهي تعيش علي هامش الحياة مرفهة منعمة . . إلا أنها رفضت كل ذلك . رفضت الملاهي والترف والأزياء رفضت ابتلاع الدموع والقهر ، الانصياع للقيود ، وتجنب أسئلة التاريخ وحرقة

المسحوقين وآلام المعذبين لم تستطع أن تصم آذانها عن أنين المخزونين وثورة آلاف الأحياء الأموات الذين تطحنهم دواليب الزمن دون أن يُسمع لهم صوت ودون أن يُرى لهم كيان . فقد قررت الشاعرة أن تنسى أنها أنثى ، لمواجهة كل الأعاصر بالكلمات والحقائق ونشر صورة للمرأة التى تنشدها الشاعرة عام 2000 .

تخلصت من كل العقبات والقيود التى تلغي وجود المرأة الإنسانة واختارت المواجهة ضمن هذه الكلمات أنثى 2000 :

كان بوسعي

مثل جميع نساء الأرض

مغازلة المرأة

كان بوسعي

أن أحتسي القهوة في دفء فراشي

وأمارس ثرثرتي على الهاتف

دون شعور بالأيام ... وبالساعات

كان بوسعي .. أن أتجمل

أن أتكحل

أن أتدلل

أن أتحمص تحت الشمس

وارقص فوق الموج ككل الحوريات

قد كان بوسعي

أن أتشكل بالفيروز . وبالياقوت

وأن أتثنى كالملكات

قد كان بوسعي أن لا أفعل شيئًا

أن لا أقرأ شيئًا

أن لا أكتب شيئًا .

أن أتفرغ للأضواء ... وللأزياء . وللرحلات

قد كان بوسعي

أن لا أرفض

أن لا أغضب

أن لا أصرخ فى وجه المآساة .

قد كان بوسعي

أن أبتلع الدمع

أن أبتلع القمع
وأن أتألم مثل جميع المسجونات
قد كان بوسعي
أن أتجنب أسئلة التاريخ
وأهرب من تعذيب الذات
قد كان بوسعي
أن أتجنب آهة كل المحزونين
وصرخة كل المسحوقين
وثورة آلاف الأموات
لكنى خنت قوانين الأنثى
واخترت مواجهة الكلمات .

صرخة من أعماق التاريخ : لرفض الأحكام الجائرة ، والحقوق المبتورة . والإباحة الفردية والتسلط المعنوي . والحدو الشائكة ، والحواجز الأبدية . لطمس دوائر الفرغ الذى يلفونه حول فكر وعقل وفم المرأة . فجعلوها مخلوقًا ثانويًا فى هذه الحياة لا صوت له ولا كيان بتروا وجودها المعنوي والنفسي . فجاءت ثورتها لتخنق الممنوعات ولتقفز من السجون إلى العالم

الرحب لتثبت للعالم العام والخاص بأنها مخلوق قوي قادر على صنع المستقبل مثل أي رجل قوي ضمن حدود الله وبأقوم السُل ، لتبقى مع اعتراضها وثورتها في / فيتو على نون النسوة :

يقولون

إن الكتابة إثم عظيم

فلا تكتبي

وإن الصلاة أمام الحروف ... حرام

فلا تقربي

وإن مداد القصائد .. سُمْ

فإياك أن تشربي

وها أنذا

قد شربت كثيراً

فلم أتسمم بحبر الدواه على مكتبي

وها أنذا

قد كتبت كثيراً .

وأضرمت في كل نجم حريقًا كبيراً

فما غضب الله يومًا عليّ

ولا استاء مني النبي

لقد وصلت لحدود السماء في استعمال أدوات الطبيعة ، وبقدر ما تزداد مساحة الأفق في مخيلتها يزداد استعمالها لمفردات جديدة وأشياء جديدة ، فالطبيعة معطاء وهي خبيرة في استخدام أجزاء الكون الفسيح فيما يخدم خيالها الخصب ويزين أحرفها والكم الذي تستعمله من المفردات .

في قصيدة أخرى تنفي الخصوصية عن الرجال والإباحة لهم في كل شيء فهو ليس القدر المحتوم من السماء بل القدر الحاكم من أصحاب السلطة ، والتوحيد للرجل في ممارسة جميع الحقوق . في الوقت الذي يحتم الجمع بين المرأة والرجل لا أن يكون قاصرًا على طرف واحد ، فدورة الحياة لا تكتمل إلا بالطرفين . بل يصبح الفراغ مخيفًا إلا بهما والإرتكاز علي طرفين اثنين متقابلين ومتوازيين يعطي دورة الحياة ضياء ونضارة في الألوان .

فالكلام ، والتغزل ، والإبداع ، مخصص للرجل والرجال فقط هم الشعراء والمفكرون والباحثون ، والمغنون في حين حَرّم ذاك على المرأة . لكن الشاعرة جمعت كل هذه الممنوعات . بإيحاءات جديدة ومشاعر رقيقة وتحديات صارمة وإثبات وجود متين قادر على كل التحديات التى أوجدها العرف على الأرض

وليست من السماء وتؤكد لنا كل ذلك من خلال قولها بتساؤلات استغراب .

لماذا ؟

يقيمون هذا الجدار الخرافي

بين الحقول وبين الشجر

وبين الغيوم وبين المطر

وما بين أنثى الغزال .. والذكر ؟

ومن قال : للشعر جنس ؟

وللنثر جنس ؟

وللفكر جنس ؟

ومن قال إن الطبيعة

ترفض صوت الطيور الجميلة ؟.

تبين لنا إن الطبيعة ترفض التفرد والأنا والنرجسية فهي لحن يتناغم فيه الرجل والمرأة وقصيدة ممزوجة بنفس الاثنين معًا إنما المجتمع التقليدي هو الذي وضع كل تلك الحدود .

فهل يمكننا تمييز الكلمات أو الأشعار بين رجل وامرأة إلا إذا مهرت بالإسم أو الصفة كلا لأن كل منهما ينهل من نبع واحد هو

النفس البشرية التي هي جزء من لحن الطبيعة بعيدًا عن ظلمة القبور وحياة الخفافيش .

وقد تُكرّم المرأة بعد موتها بوضع أحجار الرخام فوق قبرها . لكن الشاعرة ترفض ذلك التكريم بعد نهاية الحياة . إنها تريده تكريمًا حيًا يمنحها معنى الحياة وهى فيها يمنحها حريتها وانطلاقها ويبدو التمرد عنيفًا في أنها تملك القدرة على كسر رخامة القبر وذبح خفافيش العصر - أي المتسلطين الذين يعملون بالخفاء ويسنون الشرائع والقوانين متخذين من الدين سلاحًا ذا حد لا يحتمل النقاش - وبكلماتها هذه يمكنها قلع جذور النفاق وتحطيم عصر الصفيح وهي تعلم نتائج تلك الكلمات فقد يجرحونها ويصلبونها ولكنها في النهاية ستنتصر وتجسد أروع صورة لعزال جريح وستنال شرف الصلب كالسيد المسيح إذن إنها واثقة من النصر لأن القوة التي في داخلها والتي هي هبة من الله لمن يراها هؤلاء المتسلطون الذين لا يرون بالأنثى إلا الضعف والاستكانة وهذا في ظنهم هو العقل والأدب .

أما التحرر والجرأة والفعل والمطالبة بالحقوق فهذه كلها مصدر للخطيئة وللمرأة المنبوذة الشاذة في زمن يصادر فيه الرجل كل شيء للمرأة إلا الضعف . لنرى ما تقدمه لنا كلمات التمرد :

يقولون

إني كسرت رخامة قبري
وهذا صحيح
وإني ذبحت خفافيش عصري
وهذا صحيح
وإنني اقتلعت جذور النفاق بشعري
وحطمت عصر الصفيح
فإن جرحوني
فأجمل ما في الوجود غزال جريح
وإن صلبوني .. فشكراً لهم
لقد جعلوني بصف المسيح
يقولون :
إن الأنوثة ضعف
وخير النساء هي المرأة الراضية
وإن التحرر رأس الخطايا
وأحلى النساء هي المرأة الجارية

تعرية للحقائق من الزيف الذي يلفها ، ونشرها على لوائح

المجتمع سيجعل مركبات النقص عند الرجال ، الضعف والسلفية وعدم القدرة على التطور - يثور ويثأر لنفسه ويغطي ضعفه بجبروته على المرأة وكم فمها وحجب الرؤيا عنها .

وأبسط التهم التي توجه إلى الأديبات أو الشاعرات أو النساء اللواتي يُعبرن عن وعي كامن ، وصراحة جريئة ، وصدق سريرة، وإدراك عام لمعني الحياة ومنطق سلم واع وثقافة وعلم وإخلاص . هي تهمة الغواني وكأن كل الصفات الحميدة هي من صفات الغواني اللواتي يعشن حتى الثمالة .

أما الزيف والاستسلام والجهل والنفاق والضعف والغباء والسطحية صفات المرأة المُثلى التي يرغبها المجتمع ويُشيد بها إذن . إن المجتمع المتخلف هو الذي يرفض تحرر المرأة وقوتها في الحالة الطبيعية . فكيف إذا مزقت الأطر وأمسكت بالقلم واحترفت الأدب والكفر لتُثير الدرب أمام بنات جنسها وهذا ما فعلته رائدتنا الجريئة إذ تقول :

يقولون

إن الأديبات نوع غريب

من العشب ... ترفضه البادية

وإن التي تكتب الشعر ...

ليست سوي غانية !! ..
وأضحك من كل ما قيل عني
وأرفض أفكار عصر التنك
ومنطق عصر التنك
وأبقى أغني على قمتي العالية .
وأعرف أن الرعود ستمضي
وإن الزوابع تمضي
وإن الخفافيش تمضي
وأعرف إنهم زائلون
وإني أنا الباقية .

انتصار للروح . . . انتصار للأمل ، للرجاء . . للثبات ، للعزيمة ، للتفاؤل ، للحق ، فلابد لتلك الدهاليز المظلمة ضمن العقول البالية التي أكلها الصدأ وعشش فيها العفن - فباتت لا ترى فى المرأة إلا الضعف ، والمخلوق التفاه المهيض الجناح من أن تندثر يومًا وتفور ضمن قوقعتهما . ولابد لفجر النور من الانبلاج ولابد في النهاية من انتصار الحق مهما حاق به الباطل والظلم . فقوانين الطبيعة ثابتة بثبات الوجود مهما حاولت يد الإنسان احتكارها . . أو ترصدها . أو تغليفها بغلاف من حديد .

ثورة وانطلاقة أخرى في كل قصيدة ثورة جديدة لها فنها ونمطها المميز. وتحد آخر أنها كالنار تحرق من تريد وكالبلسم تشفي من تريد . تنطلق كالماء من كينونتها لتخلع الحبيب من جذوره وترمي به بين نصال تحديها لتحطنه الفصال وتطحن معه مجتمعًا نصّب أشباه الرجال على قمة الحكم امرأة عريقة الجذور نفطية الحواس صلبة العود ترفض الاستبداد لا تبالي بهجمات مجتمع رقدت الرجعية بين جنباته . وران عليه الجمود والتحجر. فهي تريد ردم ذلك المجتمع بكل عاداته وأشكاله التى تبدو للعيان بمنتهي التقدم والرقي وفي داخلها يئن ماضي عفن متسلط لن يعرف طريقًا للتقدم والحضارة . تجرف من ينابيع الرومانسية الحب والحلم والتمرد. وتروي بها جفاف القلوب وتمنع تشقق الشرايين في أوردة العادات والتقاليد حيث تمطرنا الشاعرة نفحة من ديمة صيفية تقتل الجذور العفنة ثم تعيد غرسها من جديد بانطلاقة أطيافها وتحدي أسلوبها وحلاوة كلماتها الملونة القاسية مرة. . . والرطبة الحنونة مرة أخرى تجرح ثم تداوي مكان الجرح في فتافيت إمرأة :

أيها السيد .. إني إمرأة نفطية

تطلع كالخنجر من تحت الرمال

تتحدى كتب التنجيم

والسحر

وإرهاب المماليك

وأشباه الرجال

إنني فاطمة

أصرخ كالذئبة في الليل

وسيارات أهل الكهف جاءت لاعتقالي

أيها السيد

إني إمرأة مجنونة جدًا ..

ولا وصف لحالي .

إن عشقي لك من باب الخرافات

فلا تكْسِر خيالي

من التحدي والرفض والعنف إلي الرقة والوداعة والدفء . نتابع مع الشاعرة كيف يحتلها الحبيب عندما يكون حبيبًا فعلاً يقاسمها الحياة ويشترك معها في كل شيء . هذا هو الرجل الذي تريده الشاعرة أن يكون لها رمزًا وأمنًا وسقفًا وسندًا وغطاءً . وهذا الرجل هو الذي احتل منها زمانها ومكانها . نظرها وبطاقتها الشخصية وكل ما لديها حتى إسمها وعنوانها ومنحته كل شيء

دون حدود . ثم لا تلبث أن تعود به إلى ينابيع الحياة البريئة إلى الطفولة العذبة الصافية التي لم تخدشها بعد آفات المجتمع وصدأ العادات . تتعلق به قلبًا وروحًا وعقلاً ونفسًا . لكنها لا تجد في تلك الطفولة إلا هيكلاً يحوي بداخله رجلاً متسطلًا ، أنانيًا بلا قلب ولا حكمة ولا إنسانية تجعله يُميز بين الحب والتسلط . بين الحب والاستسلام بين القوة والضعف إذ تقول :

لم يعد عندي زمان
بعدما صدّرت الأزمنة ..
أنت سقفي .. وغطائي .. والسند
لم يعد عندي بلاد ..
أنت ألغيت عناويني جميعًا ..
فإذا ما هتفوا باسمي
فالمقصود أنت
أيها الحاكمني من غير قانون
ومن غير شرائع
أيها الحابسني كالماء بين الأصابع
أيها الطفل الذي لم أستطع تهذيبه

والذي أهديته الصيف
وأهداني الزوابع
أيها الطفل الذي أخرجته من جسدي
كم أنت رائع .
أيها المحتلني
من غير إنذار .. وخيل .. وجنود
كان لي قبلك أرض .. وحدود
وأضعتُ الأرض في الحب
وضعيت الحدود ..

في نهاية القصيدة تتحول من نار الحب الهادئة الوديعة الراغبة في التفاني من أجل الحبيب إلي نار تحرق وتدمر كل شيء . يتحول التفاني إلى سلاح يطرده من كل خلية احتلها من جسدها وقبلها ومن أدق تفاصيل حياتها من نومها ويقظتها من شعاع فكرها ، ونضارة نظرتها من أناقة مظهرها ومن عمق مضمونها ، فالحب من طرف واحد ليس حبًا والتفاني من طرف واحد ليس تفانيًا إنما استسلام وضعف . وعندما تجد الشاعرة أنّ حبها من طرف واحد لم ير تجاوبًا وعطاً وتفانيًا ورغبات من الطرف الآخر

لم يقترن به نداء الروح للروح والود للود ، رفضته مهددة، ولفظته حاقدة جريئة ونعتته بالوحشية والتخلف والقوقعة والتسلط. فالحب قوة .. والتسلط ضعف والجرأة قوة .. والوحشية ضعف تقول :

أيها السيد
أخرج من جهازي العصبي
من كتاباتي
وحبري
وسطوري
وشرايين يدي
من ملاءات سريري
من رذاذ الماء ينساب على جسمي صباحًا
من دبابيسي .. وأمشاطي
وكحلي العربي
ليس معقولاً .
بأن تبقي مقيمًا سنةً كاملة في شفتي
ليس معقولاً أن تذبحني

ثم تلقي تهمة الذبح عليّ

أيها السيد

إرفع سيف إرهابك عني

إن هذا ليس حبًا

إنه

في أبسط الأوصاف

غزو بربريّ ..

جدير بتلك القصيدة أن تكون رواية إذ نجد فيها قصة بكل ما فيها من معنى ومقومات ، بداية وعرض ونهاية . حب وهيام ثم تفان بكل العطاء . . وفي النهاية تحصد خيبة الأمل وضياع العمر عندما لم يكن الحبيب على مستوى الرجولة الحقة التي اعتقدت أنها موجودة فيه أكلها الندم واعتصرتها الحسرة فقذفت به من كل كيانه ووجودها .

صرخات متتالية تطالب بالحرية تطالب بالانعتاق من العبودية . تتحرك النزعة الإنسانية إلى الانطلاق من القيود إلى الخروج من القواقع إلى الهروب من معتقلات القلاع القديمة . تتحول إلى نار تلسع لابسها وحاميها . كل هذا تراه الشاعرة فى شخصية الحبيب السيد ، الحاكم ، المالك ، صاحب الحق في كل

شيء . حيث تكمن في شخصيته كل النزعات الاستعمارية . وكيف يقتل بنزعاته . كيانها النفسي والجسدي والووحي كيف يحولها إلى أداة طيعة في يده . كيف يحولها إلى تابع يدور في فلكه فلم تعد ترى ولا تسمع ولا تدرك الأشياء إلا من خلاله وكما يحب ويرغب . توسلات رقيقة لإزاحة الكابوس عرض شيق لبقايا فتافيت إمرأة:

سيدي ، يا سيدي
أيها اللابسني ثوبًا من النار عليك
هل من الممكن
أن ترفع عن صدري وأنفاسي يديك ؟ ..
أحسن الله إليك .
هل من الممكن أن تعتقني
فأنا لا أبصر الألوان دونك
وأنا لا أسمع الأصوات
دونك
وأنا لا أعرف الشمس ، ولا البحر
ولا الليل ، ولا الأفلاك دونك

أيها السيد

إني كنت في بحر بلادي لؤلؤة
ثم ألقاني الهوى بين يديك
فأنا الآن فتافيت امرأة
أيها السيد
لو حاولت أن تُمسكني
لن ترى إلا فتافيت إمرأة

إنها أروع وأبدع لوحة لفنانة رسمت مجسمًا لامرأة أكلها الاستعمار والتسلط والتبعية ولم يبق منها إلها هيكلاً أجوف من كل معاني الحياة الخاصة والإنسانية الحقة . نرى في ديوان فتافيت إمرأة تحولاً ثوريًا رومانسيًا نابضًا بالقسوة والتمرد بالثورة والسخط على بقاء المرأة آلة تدور في فلك الرجل ، تعيش تحت رحمته يفعل بها ما يشاء وكيفما يشاء بكل أنانيته ونرجسيته بكل سلفيته الضيقة وركوده الأزلي وجذوره العفنة حينًا، ونابضًا بالرومانسية الإيجابية الدافئة التي تخلق من الحب طاقة تحارب بها الإذلال والخنوع والانقياد . تخلق من الحب قدرة تنمي قدرة الإنسان على إثبات الوجود وخلق التوازن والتكامل خاصة بين المرأة والرجل .

ونرى في بعض قصائد فتافيت امرأة زضوآء خافتة تسلط علي

المجتمع لخوض معركة مصيرية تضع المرأة في خط دفاع والمجتمع في خط آخر وتبدأ العراك رغم عدم التكافؤ بين الطرفين .

وهذا لم يجعلها تيأس من الرومانسية كسلاح فكري ووجداني وشعري قادر على التأثير الإيجابي فالمعركة ليست بين الحياة والموت ، بل هي سبيل لإيجاد جو من التفاهم والتناغم بينهما وربط كل منهما بالآخر بحيث لا يستطيع أن يحيا أحدهما دون الآخر وهي مواجهة حتمية بين الجديد والقديم ، بين الحضارة الفعلية والسلفية المتسلطة في قالب الحضارة المزيف . كما نشعر بعبق الرومانسي القديم الذي يحتفظ بعنفوانه كثورة ضد كل مظاهر التقليد الأعمي ، والتجمد الفكري والتصنع في الأشياء وينادي بالعودة للطبيعة وقوانينها التي لا تعرف الركود فهي دائمًا وأبدًا في تطور مستمر وتجدد دائم كي تستمر الحياة . وبهذا استعملت أسلوبها الرومانسي هذا لتوجيه سهام النقد والتهديد والتشهير والتعرية إلي قلب المجتمع والعادات علّها تبدل دماءها الداكنة بدماء نظيفة حرة خالية من الشوائب والأمراض . وهذا لم نره إلا قليلاً في ديوان «أمنية» و «إليك يا ولدي» حيث أطلقت مشاعرها الإنسانية وأفكارها العميقة وخيالها الفسيح.

في قصيدة أوراق من مفكرة تلملم الشاعرة قواها من فتافيت إمرأة . ثم تخرج لنا إمرأة في منتهي القوة والصلابة والتماسك

والشجاعة ومركز الحياة حيث يتجمع عندها وفي محيطها كل المراكب ولقالق البحر ونجوم الصيف . وهى بهذا تبلور لنا قيمتها في الحياة وقوتها للوقوف في وجه التخلف والسيطرة وسلطة الأموات . تعلن عن بدء ثورتها فهي هاربة من خرافات الماضى وقيود القبيلة وسلطة السلفية التي تحكم الحاضر وهذا ما أرادته الشاعرة . إن ما يحكم العصر الحالي عقول وقوانين أجداد الأجداد وهو بدوره حجم من الأموات على الأحياء إلا أنها تتحدى كل ذاك ثم تفتخر بأصولها النخيلية العربية العريقة وتتصف بالجرأة والثبات والمبادرة والسيادة الحقيقية :

أنا الخليجية
التي يمر من بين شفتيها خط الاستواء
وعلي خيطان دشداشتها
تتجمع مراكب النواخذة
ولقالق البحر
ونجوم الصيف المتساقطة
من حدائق الله
أنا شجرة الدر الدائمةُ الاخضرار
وفاكهة النار والنحاس

وزهرة الحلم والنعاس

أنا البدوية

التي جاءت إليك من بحار الصين

لتتعلم الحب في مدرستك

فعلمني

أنا الخليجية

الهاربة من كتاب ألف ليلة

ووصايا القبيلة

وسلطة الموتي

والتي تتحدى .. حين تكون معك

حركة التاريخ وجاذبية الأرض

أنا النخلة العربية الأصول

والمرأة الرافضة لأنصاف الحلول

فبارك ثورتي

أنا الخليجية

التي تصفها سمكة

ونصفها إمرأة

أنا الناي .. والربابة .. والقهوة المرة

لم يصل الغرور إلى قوتها وثقتها بنفسها رغم معرفتها لمكنون ذاتها وما تتمتع به من ذكاء وحضارة ومعرفة في أمور الحياة . فهي تعلم أن الحب لا يتكون إلا في ظل التفاهم والتكامل بين الرجل والمرأة ولذا نراها تتواضع وتتجاهل معني الحب ثم تطلب من الرجل أن يكون مدرستها في الحب . ثم تفرش له درب الحب هذا بما تشع به مدرستها هي ليأخذ منه ويتعلم . فمن مدرستها شجرة الدر الدائمة الخضرة وفاكهة النار والنحاس وزهرة الحلم والنعاس . وما ثورتها ضد تخلف الرجل وتسلطه وتحجر المجتمع من أجلها فقط بل من أجل أن تعيد بناء الرجل على الطريق الصحيح من أجل أن يتخلص من كل القيود ويعيش حراً شجاعًا رجلاً يعرف معنى الحياة ويلتف معها بيد واحدة كي تتحدى به حركة التاريخ وجاذبية الأرض . والرجل والمرأة هما دورة الحياة وكل منهما يكمل الآخر. وعندما يتقن الرجل فن الحب تكون المرأة له نبع السعادة وموئل الراحة ونهر الحنان . وما الناي والربابة والقهوة المرة ، إلا رمز لذلك . وعندما يرفض الرجل معرفة فن الحب المتكامل ، يكون نصيراً للتخلف ومسانداً لحكم الأموات والمرأة نبع يتدفق حضارة . عندها ستتحول المرأة

إلى مهـر شاردة تكتب بأظافرها مـعنى الحرية وتقتل الخـرافة التي تنادي بقيدها وزجها في السجون:

أنا المهرة الشاردة

التي تكتب بحوافرها نشيد الحرية .

أنا الخنجر البحري الأزرق

الذي لن يستريح

حتى يقتل الخرافة

أنا الخليجية

التي تقاتل بأظافرها

من أجل أن يكون الخبز للجميع

والمطر للجميع

والحب للجميع

والتى تقاوم ملح البحر

وتيارات الأعماق

والرجال الذين لهم أسنان سمك القرش

وعيون الشرطة السرية .

هنا نرى إن ثورتها ليست من أجلها فقط من أجل نفسها وذاتها بل من أجل نصرة الإنسانية جمعاء من أجل أن يعم الخير والرفاه والسعادة على الجميع ، من أجل ذلك تتحمل كل المخاطر تحارب كل أشكال العنف تقاوم ملح البحر تيارات الأعماق الرجال الذين لهم أسنان سمك القرش عيون الشرطة كلها مصادر عنف وقوة تتحرك ضد حرية المرأة .

أنا الخليجية

المعتصمة في الخوابي

أنا الغجرية التي تحملك في خلاخيلها

وتسافر بك إلى آخر حدود الدنيا

وإلى آخر حدود الوله

يا من يشعل بياض الثلج

ويشعل ذاكرتي

أنا قصيدتك المكتوبة بحبر الأنوثة

أنا عصفورتك

أنا جزيرتك

أنا كنيستك

فاسمع أجراس حنيني
واطرق الباب علي في أي وقت تريد
وعلق علي أهدابي
أحزانك.

هكذا تختم الشاعرة القصيدة بفيض من الأنوثة العارمة حب وحنان ومودة فليست المعركة بين رجل وامرأة ، بين حبيب وحبيبة. وكيف يحارب الرجل وطنه وصفورته وجزيرته وكنيسته وحبه إذا كانت المرأة هي كل هؤلاء . وهل يحارب نفسه ؟؟ هل يحارب نبع حياته وجمالها والحضن الدافئ الذي يضمه والبسمة المشرقة التي تشع عليه الأمان وتغسل له همومه هل يقضي على كل هذه المصادر الباعثة للحياة ليعود إلى الظلام والهوم والتعاسة.

كلما أعدنا قراءة هذه القصيدة نرى فيها معني جديداً ويُبهرنا الكم الكبير من الصفات والتعابير والمعاني البراقة العقمية الناعمة القوية منها مثلاً:

بين شفتيها خط الاستواء ، مراكب النواخذة ، نجوم الصيف المتساقطة، من حدائق الله شجرة الدر ، فاكهة النار والنحاس ، زهرة الحلم والنعاس ، النخلفة العربية الأصول ، أنا الناي ، والربابة ، والقهوة المرة ، المعتصمة في الخواب ، تحملك في

خلاخيلها ، تسافر بك إلي آخر حدود الوله ، يشعل بياض الثلج، يشعل ذاكرتي ، بحبر الأنوثة ، أنا عصفورتك جزيرتك ، كنيستك ، إسمع أجراس حنيني ، علق على أهدابى أحزانك . كلها تعابير تثير الدفء في الجما ويورق بها الرماد ويتحلل الصخر وينبجس منه الماء .

وفي تعابير التمرد والمجابهة أيضًا ما هو أشد فتكًا من السلاح والكيمياء . الهاربة من كتاب ألف ليلة وليلة ، ووصايا القبيلة ، وسلطة الموتى . المرأة الرافضة لأنصاف الحلول ، المهرة الشاردة . تكتب بحوافراها نشيد الحرية ، أنا الخنجر البحري الأزرق ، يقتل الخرافة ، تقاتل بأظافرها، تقاوم ملح البحر ، تيارات الأعماق ، والرجال الذين لهم أسنان سمك القرش ، ويعون الشرطة ، لنصف هذه التعابير إلى قاموس الحب والحرية في قصيدة توسلات خوف وقلق حب وحيرة ، حب للرجل وخوف من أن يتحول ذلك الحب إلى حواجز تطمس وتخفي وجود الحبيبة وكيانها وذاتها. توسلات عميقة وديعة هادئة ناعمة لكنها لا تنطوي على الضعف والاستسلام والخنوع بل على الأصرار والمثابرة للدفاع عن ذات المرأة ووجودها المعنوى وما يحويه من كنوز ومواهب وطاقات . وإن كان يبدو بأن الحب هو المبتغي :

أتوسل إليك

أن لا تقف بين كتابي وبيني

بين ضوء عيني

وعيني

بين كحلي .. وهدبي

بين فمي .. وصوتي

فهذا ظلم لا أحتمله

هنا يبدو الحب ظلمًا ، وتسلطًا لا يحتمل . وقد نعود لفتافيت إمرأة فالتحكم في ضوء العين والكحل والهدب والفم والصوت صورة لاستعمار جائر وتسلط أناني إلا أنها لا تنهار كما في فتافيت إمرأة بل بقيت متماسكة صلبة قوية تتوسل وهي تعلم ماذا تريد ومتى تريد وكيفما تريد . لتحمي نفسها وذاتها وتثبت وجودها الذى يمكن أن يغير ويقلل من تسلط الحبيب ويعود إلى الحب الحقيقى .

أتوسل إليك

أن لا تقف بين مرآتي ... ووجهي

بين قامتي ... وظلي

بين أصابعي ... وورقي .

بين فنجان قهوتي ... وبين شفتي

فهذا استعمار لا أحتمله

أتوسل إليك

أن لا تطحنني

بين التزاماتي العاطفية نحوك

والتزاماتي التاريخية نحو قبيلتي

بين وصايا أبى العشر

ووصاياك العشر

بين قبلات أمي المضرجة بالعسل .

وقبلاتي المضرجة بالجنون .

أتوسل إليك

أن ترفع يدك عن أجزاء الوطن

وعن ترتيب أيامي

فيا أيها الإقطاعي

الذي يتجول علي حصانه فوق شرايين يدي

ويمسك بيديه مفاتيح عمري

ويختم علي شفتي بالشمع الأحمر
أتوسل إليك للمرة الألف
أن تمنحني حرية الصراخ
وأن لا تقف بيني وبين الغيوم
عندما تمطر السماء

إنها نرجسية الحبيب التي تدفع بصاحبها لأن يعشق نفسه ويمتلك كل شيء ويصبغه بنفسه . صورة متدفقة لظم أزلى واستملاك أبدي لكل جزء من أجزاء المرأة وبالتالى يقضي علي نصف المجتمع . فالمجتمع نصفان نصف يمتلك ونصف يُمتَلَك نصف يَحكم ونصف محكوم ، محكوم عقلاً، وجسدًا ، وروحًا، وكيانًا ، وقلبًا ، لنعد إلى الصورة قليلاً .

تتوسل إليه أن لا يقف بين الكتاب وبينها ، بين ضوء العين والعين، بين الكحل والهدب ، الفم والصوت ، المرأة والوجه ، القامة والظل ، الأصابع والورق ، الفنجان والشفة ، القميص والشرشف ، ثم تكرر التوسلات أن يرفع يده عن أجزاء وطنها . ثم (الذي يتجول على حصانه فوق شرايين يدى) ويمتلك مفاتيح العمر ، ويختم بالشمع الأحمر شفتيها ثم تطالب بحرية الصراخ، وأن لا يقف بين الغيمة وبينها . كلها صور قاسية مولفة مخيفة ، عتية صارخة أزلية تعبر عما تعانيه المرأة من

كابوس التحكم والظلم والقيد المفروض عليها بكل جزئيات كيانها وحياتها مهما صَغُرت ، حتى الصراخ الذي يولد مع الجنين ليعلن بداية الحياة والحرية.

صورة مأساوية كئيبة صادقة لرجل عاجز عن الخروج من ضخامة حجمه وتحجر عقله وكتلفة أنانيته وحجم أطماعه وجشعه، فهو عنيف ، جبار ، متخلف ، يُسعد بممارسة كل أشكال الضغوط السالفة ، ليفسح لنفسه أن يسرح ويرتع في هذه الحياة وأن يكون كل شيء على الإطلاق الكاتب والشاعر والحبيب المعبود والرجل الحاكم والاقطاعي والمالك حتى للزمن الذي يعيشه.

إنها مطالبة بالديمقراطية التي تجسد قيم العلاقات الإنسانية وفي أولها الحب ، فالحب هو تكامل وتناغم وانصهار كل منهما بالآخر وفي مقدمته الإيثار وليس تملكًا واستعمارًا وقوة .

في كل قصيدة نرى إبداعًا وإبتكارًا جديدًا ، كل القصائد تحمل دمًا من فصيلة واحدة زمرتها الثورة والحرية إلا أنها مختلفة الرؤيا مختلفة العلاج والألوان . تسكب لنا الشاعرة نَفسها الإنسانى الذى وهبها إياه الله. بصورة جديدة وأسلوب متطور وسلوك قويم . تلون وتكتب وتصف. وتزرع بذرة الحب في قلب الصحرآء علّها تنبت وتزهر وتنمو .

مع صورة أخرى ومحاولة أخرى لقلب المفاهيم البالية ، تحاول استئصالها بهدوء وروية . تحاكي فيها جذور الرجل علّها تقتلع العفن منها أو تجعل النور يدخل إليها كى يمدها بالحياة والنمو . محاولات يائسة تارة ومتفائلة تارة أخرى صابرة دؤوبة على وصف العلاج في رجل يخاف البحر:

مزقت تذكرة السفرة
وقررت أن أعفيك
ابق يا صغيرتي على اليابسة
فذاكرتك كذاكرة الحجر
لا تحتمل الهجرات الكبرى
ابق مواطنًا في مملكة الشجر
حيث التجول ممنوع
وتغيير العناوين ممنوع
والانقلاب على التاريخ ممنوع
إبق ثابتًا فى مكانك .. كساعة المحطة .
أو كموقف إجباري لأوتوبيس الدولة .

بداية اليأس من الإصلاح وقفزة حرة في عالم الحرية التي

تبغيها الشاعرة تتذمر من ضعفه ومن تحجر عقله ثم تعمد إلى مدحه وذمه بأسلوبها الرومانسي الذي يمدها بالتحدي الجديد تعود للطبيعة التي تتجدها بالتعابير والتشبيه فتجود بما تأخذه من الطبيعة (ابق مواطنًا فى مملكة الشجر) تشبيه بليغ فالشجر ثابت ويدل على الخلود والأصالة إلا أنه يدل على الجمود والتحجر حيث التجول ممنوع وتغير العناوين ممنوع والانقلاب على التاريخ ممنوع ، كل هذه الممنوعات هي كناية عن منع المعرفة والتقدم والحضارة ، فكلما تجول المرء ازداد نشاطًا وعلمًا ومعرفة . وثبات الشجر وساعة الحائط وموقف الأوتوبيس كلها دلائل على مدى القوقعة ومرادفات للتحجر العقلى الذي يستكين له الرجل ويتمسك به كي يبقى هو الحاكم الآمر . لم يدر بأن الطرف الآخر أي المرأة ستعيش يومًا وإن طال بها الخنوع والسكوت . وهكذا تشير الشاعرة إلى مكمن الضعف عند الرجل راجية تحريره من كبوته الأدلية وخنوعه الداخلي ، تبرزها بسلاح التهكم والسخرية علّها تكون صدمة تجعله يصحو ، وتنبه إحساس التحدي عنده كي يحاول معها تفهم الحياة ومعنى الحب ثم تتابع :

أيها السيد

الذي يضع ساقًا فوق ساق

ويتغرغر بفتوحاته النسائية القديمة

إنني أعفيك من مجاملتي
لا أريد أن أجعلك عاشقًا رغم أنفك
أنت نجم في علاقاتك العامة
وأنا غجرية
لا تعرف أقنعة المدن
أيها السيد الذي أغمد سيفه
ونسى غريزة القتال
إنني أعفيك أيها السيد من كل شيء
فأنت رجل لا يتقن الألم

إنها نظرة دونية لكنها حقيقة واضحة تبرزها الشاعرة بوصف دقيق لحركة الرجل اليومية التي يمارسها ضمن جدران البيت وخارجه . فهو بطل في فتوحاته ومغامراته النسائية المبطنة . هو نجم في فن العلاقات العامة وهي غجرية لا تعرف الزيف . صورة صارخة لإجمالي التناقض الذي يعيشه كل من الرجل والمرأة . فهو يحب الجمود والمحافظة على ممتلكاته (المرأة) ويبحر في علاقاته السرية وانتصاراته مع المرأة وهي مليئة بالحيوية والنشاط والمرونة والدخول في معترك الحياة بكل ما فيه من تجدد

وحصارة ومن ثم تسامحه ولا تطلب منه أن يحبها لأنها تعلم ما في داخله من أفكار مظلمة لذا تعفيه من كل شيء . ثم تتابع :

إبق أيها الرجل ، حيث أنت

إبق عبداً لعاداتك اليومية البليدة

تنتظر قهوتك في الثامنة

وإفطار الصباح في التاسعة

إبق بين ملفاتك

وبريدك .. وسيجارك الكويتي

مزروعًا كمسلّة مصرية

تعرية وفضح لاستكانة الرجل ، إنه عبد مأمورحُكِم عليه بالسجن المؤبد ضمن قوقعة التخلف والسلفية ، تصفه عبداً بليداً لعاداته اليومية وساذجًا لا يملك القدرة على الرقي . إنه خنوع تحكمه العادة فتحوله إلى أداة تنفيذ تحركها الرغبات بعيدة عن العقل والثقافة والتقدم . والساذج لا يُطلب منه شيء لأنه حي يرزق بالجسد وميت في روحه وكيانه وأحلامه وآماله . .

أيها الرجل المشنوق على حبال الوقت

إبق مطموراً تحت أرقامك وأوراقك

إبق واقفًا على مرفأ الطمأنينة

أما أنا

فمسافرة مع البحر

ومسافرة مع الشعر

ومسافرة مع البرق

مسافرة في كل الأشياء

التي لا تعرف التوقيت

تحدٍ لاذع يجرف المستحيل ويجابه الصخر الصلد . صورة حيوية متدفقة إصرارًا ومثابرة على نيل الحرية . نداء من أعماق الأعماق للإنطلاق ثم تحذير ويأس من الإصلاح . فتقول إبق مشنوقًا على حبال الوقت إبق مطمورًا تحت أرقامك وأوراقك . تفرد جناح العزم وتنطلق لتسافر مع البحر للعمل والثقافة مع الشعر للكتابة مع البرق مع كل الأشياء . كلها صور حادة الألوان. خيال يحلق في الرومانسية الخلابة حيث تقرن الحب بالخلق فالخالق وحده يخلق الحب والحب يخلق المعجزات التي عجزت كل الوسائل عن تحقيقها . لأن الحب عند الشاعرة سعاد الصباح يعني الحرية والتكافؤ والتوازي بأي شيء لا يعني الاقنياد الأعمي والخنوع والصمت والضعف والجهل . إنه النضوج في

الطرفين وقمة الحكمة والعقل بين الرجل والمرأة . لنغص معًا في دياجير عقل المجانين :

يحكون عن كل العصور

عن روما

وقرطبة التي تبكي قبابها في الليل

بدموع عربية

يحكون عن المعجزات السبع

وينسون إنك معجزتي

وعن عصر المأمون الذهبي

وينسون

أن لا عصر ذهبيًا إلا عصرك

ولا قيدًا أجد فيه حريتي

إلا قيدك

بوح عارم بالحب نداء حزين من قلب مكلوم يبحث عن الحب عن الرجل الذي تعتبره الشاعرة يستحق حبها . فالمرأة الذكية الناضجة ترى في الحب أجمل قيد لها وأجمل حرية تنبعث مع قيد الحبيب ، فالحياة تمشي على ساقين اثنين المرأة والرجل

وكل منهما يشكل محور الحياة للآخر وضوءه الساطع . فالرجل يحيل الظلمة إلي ضياء والجماد إلى كتلة مشاعر رقيقة ، يحيل اليأس إلى أمل والتعب إلى راحة . . يخلق من الكهولة شبابًا ومن الفراغ واحة ، فيما لو كان الطرفان بقلب واحد وروح واحدة ليس فيه تطرف وأنانية . الكل ينظر إلى أنّ الآخر مكمل له ومتمم لحاجاته. إذن المعجزة التي تفتقدها الشاعرة هى التوافق والانسجام بين الرجل والمرأة .

ثم تتحدث عن الكتب القديمة وكبار العشاق والرسامين والموسيقيين والشعراء إلى أن تقول :

يا الذي اكتشف أنوثتي قبل أن أكتشفها

واخترعني

قبل اختراع النار والشعر

لا أحد يعرف معجزاتك

أيها الرجل الذي حولني في ثوان

إلى قطعة شمس

وسبيكة ذهب

هنا تعود الشاعرة للبدايات الأولى من الخليقة . فالعلاقة الحميمة التي تربط الرجل بالمرأة ليست اكتشافًا موسيقيًا أو شعريًا

أو حربًا وليست إبداعًا لفن تشكيلي. إنه الحب . . الحب الذي يغوص في عالم الأوثة الزاخر بالإثارة والحنان والدفء والبكاء . هو اكتشاف لمواهب النفس البشرية والتي وجدت قبل اكتشاف النار والشعر . والقصد هنا أنّ العلماء حددوا تاريخ بداية الحضارة البشرية مع اكتشاف النار وهذا ما قصدته الشاعرة حيث العلاقة الحميمة بين الرجل والمرأة ليست اكتشافًا موسيقيًا أو شعريًا أو حربًا وليست إبداعًا لفنٍ تشكيلى إنه الحب . . الحب الذي يغوص في عالم الأنوثة . الذاخر بالإثارة والحنان والدفء والعطاء ،هو اكتشاف لمواهب النفس البشرية والتي وجدت قبل اكتشاف النار والشعر- والقصد هنا إن العلماء حددوا تاريخ بداية الحضارة البشرية مع اكتشاف النار وهذا ما قصدته الشاعرة إن العلاقة حميمية بين الرجل والمرأة قبل اكتشاف الحضارة فكلاهما بداية الخلق وكلاهما اكتشفا النار ، ثم تشير إلى معجزة الرجل . فيما لو أدرك معنى تلك العلاقة . في خلق المستحيل فيحولها إلى شمس أو سبيكة ذهب ، وهي كناية عن مدى قدرتها على العطاء وإشعاع الدفء والقوة والسعادة والخير والإخلاص والوفاء والأصالة التى تسعده وتورق حياته .

عود على بدء الرومانسية القديمة حيث ارتبط الحب بالجنون . وصفحات التاريخ ملأى عن عشاق الهوى ومجانين العشق منهم

من انتحر ومنـهم من قضى شهيد الهـوى ومات فداء الحبـيبة . . يعتبرهم التاريخ مجانين لشدة وفائهم وإخلاصهم للحبيبة . إلا أن هذا العصـر قد طمس بعقده وسلبـياته كل نوع من أنواع الحب . إنه حب العصر الحديث الحب الذى سيطرت فيه المادة على القلب وتحركت عـقدة المال والمصلحة لتـسير العـقل وتقفل أبواب الحب بالقلب . فـالمادة تعنى المصلحـة ، والمصلحة تعني الأنانيـة وهذه تعني التسلط والجشع وهذا الأخير يتحول بصاحبه إلى بؤرة النفاق والكذب والخـداع والمراوغة ليـصل غرضـه ومن ثم يعود إدراجـه ليبحث عن مكان آخر . لنبق مع مجانين الهوى :

يتحدثون كثيراً عن مجانين الهوى

ومجانين العشق

يتحدثون عن البهاليل

الذين شنقوا أنفسهم على ضفائر حبيباتهم

ودخلوا إلى غابات الحزن ولم يعودوا

وقاتلوا في سبيل امرأة .. حتى قُتِلوا

عن قيس بن الملوح

وعن ديك الجن الحمصي

وعن فان غوخ

ولكنني لم أعرف مجنونًا أعقل منك
ولا عاقلاً
أكثر منك جنونًا .

إن كان الجنون الذي يعنيه المجتمع (في تحرير المرأة وقوة شخصيتها ومشاركتها في مسؤوليات الحياة) هذا الجنون هو قمة العقل والوعي . أو الجنون الذي تعنيه الشاعرة حين تصف الحبيب بحديثها عن الرجل الذي يستطيع أن يفجر أنوثتها ويتلقف هيام روحها ويغزل من حنانها تاجًا لقلبه. فهو جدير أن يسكن قلبها وتتوجه ملكًا على عرشها بلك إرادتها :

قرأت عن ملوك تنازلوا عن عروشهم
ليحتفظوا بعرش الحب
يا الذي علمني أبجدية الحنان
وأدخلني جامعة الوله
لا تتنازل أبدًا عن عرشك .

دعوة صريحة ، إعتراف بأزلية مدرسة الحب عند الرجل ، عودة إلى الطفولة التعليمية لكنها تخرجت من مدرسته وجامعاته أكثر منه فهمًا ووعيًا وإدراكًا لمعاني الحياة ، لقد فاقت أستاذها

وبدأت تدعوه ليتعلم بمدرستها كي يبقي محتفظًا بعرشه داخل كيانها .

قرأت كل معاجم العشق
وكل رسائل العاشقين
قرأت (طوق الحمام)
و (نشيد الإنشاد) و (مزامير سليمان)
قرأت (أوفيد) ... و (عيون الزا)
ولكنني لم أستوعب حتى الآن
قصة تستوعب مُنانا
وقصيدة تتسع لكلانا
ولغة تكفي أن نتمدد فيها ... نحن الاثنين
لم أجد يا حبيبي
في كل المكتبات التي ذهبت إليها
وفي كل الكتب التي قرأتها
كلمة ... تستطيع أن تقولني
أو مفردة ... تستطيع أن تقولك

فيا تاركي مجروحة على زجاج اللغة المستحيلة

أتوسل إليك

أن ترفع يدك عن ثقافتي .

لوحة تاريخية وعصرية تبرز لنا الشاعرة إستكانة الرجل لحياة رتيبة لا تجديد فيها ولا حياة فالروتين القاتل يستحوذ على إحساسه بالرضا على تلك الحياة ظنًا منه إنه لن يجد أجمل منها . لذلك يخاف من أية مبادرة فى إتجاه التجديد . في حين نرى أن دولاب الزمن يدور بسرعة وبدأت المرأة تدور فى مملكة وتلملم بقايا شعورها الإنساني لتطالب بحقها في الوجود والكيان . والرجل يقف على هامش الزمان لا يتفاعل معه أو به. لذلك تتكلم المرأة على لسان الشاعرة بجرأة فريدة متميزة ولأول مرة ترفع شعار التهديد بأنها ستتركه قابعًا فى عالمه الخاص وظلمة جهلة . بعد أن عجزت عن إيجاد لغة تفاهم أو قصة حب تجمعهما . رفض قاطع للعيش مع رجل متحجر الأفكار والآراء عاجز عن التطور الثقافي والوعي العام لأمور الحياة .

هذا ولأول مرة نجد مثل هذا الطرح في الشعر العربي وخاصة على لسان إمرأة . إنها رائدة في كل شيء وخاصة في معالجة قضايا المرأة والرجل . إنها تنشد الحياة معه وترحب به بكل أشكال التملك حينما يكون سندًا لها ومعولاً بيدها لقلب المفاهيم

الخاطئة ، لكنه إذا أصبح عالة عليها وعبئًا ثقيلاً فوق أعباء الحياة الأخرى فمن الطبيعي أن تتابع مسيرة حياتها دونه إذ لا تتوقف الحياة عند شخص معين أو حدث معين أو أى شيء آخر . .

ثم ننتقل لتصف لنا ساحة الشعور الخالية بعد غياب الحبيب ، كيف أصبحت شاي الساعة الخامسة إدمانًا نفسيًا ملأ كيانها وعشش في جذور لوعها ووصل إلى أدق الشرايين ،ف أصبحت شاي المساء رمزًا لحبة ودنيا لعشقه ومحرابًا لتعبده حين قلصت كل العبادات إلا عبادته . وهذا ما يجعل المُتعبد دائمًا تحت رحمة المعبود . دخل شاي المساء في تركيب أنسجتها وباتت تشربه دواءً لإدمانها وللتخلص من ذكرى الحبيب ، فليست العبارة في شاي الخامسة إنما فيما أحدثه الغياب من غذاب لأنها تعيش الإخلاص والواء قبل الصدق الطفولي الذي لا يعرف الغش والخداع لتبقي مع شاي الساعة الخامسة :

أصبح شاي الساعة الخامسة

ناقوسًا يضرب في ضلوعي

وعبادة يومية أثابر عليها

يوم لا يبقى من العبادات سوى أنت

لا يبقى من المعابد سوى صدرك

أصبح شاي الساعة الخامسة

الدواء الذي أشربه لأشقى

والدواء الذي أشربه

لأموت

دائرة الفراغ كبـيرة ، اقتلاع الجذور مُـر قاسٍ أليم ، الوحدة مظلمة قاتلة . كل ما حولها يتبدل فالذكرى أليمة موجعة . غاب عن عينهـا لكن يخاله لم يبـرح محيطهـا . لم يبق منه إلا شاي الخامسة ، وبات مرًا كئيبًا جافًا لا حياة فيه ولا معنى له ، بعد أن كان دنياها ومقلتها وجنتهـا بعد أن كان محور إرتكاز لحياتها تدور حوله بسعادة . سقطتْ وهوتْ في قاع الضياع عندما بقيت وحيدة دون محور ارتكاز والذي لا حياة بدونه ، لتبقى:

أصبح شاي الساعة الخامسة

نعمتي .. ولعنتي

بسمتي .. ودمعتي

واحتي .. وورطتي

أصبح الصليب الذي أنزف عليه

والكرباج الذي يلسعني على ظهري

كلما جلست علي طاولة تتسع لشخصين

وطلبت فنجانين من الشاي

واحدًا لي

وواحدًا لرجل لا أعرف متى سيأتي .

شواهد ثابتة على مدى صدق المرأة وإخلاصها وتفانيها في الحب وعلي أنانية ولا مبالاة وطيش وسخرية الرجل من الحب . وهذا يعود أيضًا لعقلية الرجل الرجعية وسطحية المرأة فى طلبه وعدم وجود مكمن حب حقيقي في نفس الرجل . ان استعمال التعابير التالية :

يضرب ضلوعي ، عبادة يومية ، لا يبقى من العبادات سوى أنت ، ومن المعابد سوى صدرك ، دواء أشربه لأشفى ، وأموت، نعمتي ، لعنتي ، بسمتي ، دمعتي ، واحتي ، ورطتي، صليب أنزف عليه ، كرباج يلسعني . كلها مضادات وتعابير نتداولها كل يوم إلا أن التركيبة الخاصة لدى الشاعرة أضفت عليها حركة ودلالات ساحرة تثير في النفس مكامن الحب والوداد والحزن واللوعة ، وحرقة الفاق . أيضًا تثير المتناقضات فيشعر القارئ بحركة جامحة بأحاسيسه . فيثور مع الكلمة حقده وغضبه ، وكراهيته وتغذي روحه بمشاعر الحب . وتجنح به من

عالم المادة إلى عالم الخيال الذي ترسم حدوده ضمن المعقول ، دون أن تخرج إلى عالم المستحيل وتغذيها بالرجاء والإيمان والمثابرة والإصرار على نيل الحرية والوصول إلى عالم هادئ تسوده المحبة والمساواة ، التفاهم والإيثار . لذلك نراها تنهي القصيدة بأمل من سيكون هذا الذي سيشرف معها الشاي؟؟؟ . . .

نعود إلى دوائر الحبر الصيني في قصيدة «الحب والمعتقل» وكيف يتحول الحبيب إلى سجان متسلط دون أن يدرى بانقياده لتطبيق أحكام العرف والعادة . وتستعمل الشاعرة كلمة الحبر الصينى كناية عن العقلية القديمة والصرامة التي يحكم بها الرجل، فالحبر الصيني لا يزول ولا يمحى، توسلات لذلك الحبيب الذي امتدت قسوته لكل جزء من جسدها ويومها وحركة أنفاسها ، إذ تقول :

هذه الدوائر التي رسمتها بالحبر الصيني

حول فكري .. وذوقي .. وعاداتي

حول كل بوصة من جسدي

وكل موجة من تموجات نفسي

وكل صغيرة ... وكبيرة في حياتي

هذه الدوائر

بدأت تأخذ شكل المعتقل
فلا تضيّق الدائرة عليّ أكثر
لأنني أريدك حبيبي
لا سجّاني

صراخ اللبوة ، صراخ الحق والحرية ، يكون ذائمًا عاليًا قويًا جريئًا لا يهاب حتى الوحوش الضاربة ، لا يخاف الموت ، فكلمة الحق لن تموت والحرية حق وهبه الله للإنسان فكيف سيأخذه إنسان آخر . بقصيدة رجل تحت الصفر تسفر الشاعرة عن وجه الحقيقة وتعلن للملأ صفات الرجل . تعرّيه حتى العظم. تبدأ بوصفه (هولاكو) . الذى عُرف عبر التاريخ بهمجيته المتوحشة ، وولعه بالعنف والقتل والتدمير . وها هى الشاعرة تنادى الرجل بهولاكو أيها الرجل السوداوي ، المأساوي ، العذواني ، ثلاث مرادفات لأبشع وأقسى أنواع الوحشية والعدوانية والسادية (فالسادي هو الذي يتلذذ بآلام الآخرين) وحين لا يميز الإنسان بين الحبر والدم ، يكون أكثر من سادي متطرف متوحش بلا عقل ، ثم تصف الفرق الشاسع بينهما في القلب في الفكر في الذوق حتى في الفعل ورد الفعل فهو رغم كل قسوته ووحشيته ورجعيته وظلمة عقله الأعمى يمارس فن القتل وهى في منتهى الحكمة والعقل والتأني . وهي تمارس فن

الصبر ، إنها صورة مأساوية لكنها تـعيش في قلب الحقيقة الثابتة الأكيدة التي تحصل في أسر الأكثرية الساحقة فى وطننا العربي :

يا هولاكو هذا العصر
إرفع عني سيف القهر
إنك رجل سوداويّ
مأساوي
عدوانيّ
لست تفرق بين دمائي
وبين نقاط الحبر
يا هولاكو
ليس هناك ما يجمعنا
لا أشياء القلب
ولا أشياء الفكر
أنت تحب ثياب البَر
وأني أشرس من أسماكِ البحر
أنت تمارس فن القتل

وأنا أتقن فن الصبر .

ثم تتابع بإصرار الواثق بالانعتاق من قيد السجون والخلاص ولو على على مستواها الفردي تمردها على هولاكو التاسع والتسعين وهذا كناية عن قدم التسلط وأزليته . علي المرأة إصرار وعزم قوي على عدم الرجوع للإستكانة وعدم المثول لأوامر ذاك السجان الوحشي . تصور لنا مدي تألمها واشمئزازها من وحشيته فأصبحت ترى في فمه أشواكًا بدل اللحم والدم أي الحنان وتتصور السرير كالقبر فهل هناك أقسى وأشنع من ذلك الإحساس على قلب المرء . تذكرنا هنا ببيت من الشعر القديم يقول :

وماذا تنفع مزينة السقوف

إذا كانت بأنظار السجون

أى مهما كان المكان جميلاً والسرير ناعمًا سيصبح كالأشواك في حال الإحساس بالقهر والتسلط ثم تشير في نهاية القصيدة إلى برودة تخلفه وجهله في الحياة وقسوته وتسلطه ، حيث لم يتركوا لعقله سبيلاً إلى التحضر والمعرفة ، فتشبهه بالجماد الذي لا حياة فيه . وهي في فمه الثورة والغليان لنيل الحرية :

يا هولاكو التاسع والتسعين

لن تدخلني بيت الطاعة فأنا امرأة

تنفر من أفعال الأمر

إن شفاهك مثل الشوك

وإن سريرك مثل القبر

يا هولاكو

لا تتضايق من كلماتي

إني في حال الغليان

وإنك رجل تحت الصفر

انتصار على الآلام ، تفوّق في تقرير المصير ، تحدٍ للقهر والقاهر ، وللظلم والظلام تحدٍ جريء ، ثورة من العتاب واللوم، ثورة علي الحزن والآهات علىٰ الحرمان والعذاب والضياع إنها كباقي الثورات لكنها تتميز بمعرفة حقيقية لطريق الخلاص ودحر الألم والقهر انتصار علي الموقف المتأرجح بين الدموع والابتسامة بين الظلمة والغباء بين الانتظار والسعادة سعادة اللقاء وألم الانتظار الذي يحول الربع إلى كآبة ، والأمل إلى شقاء لنبق مع الشاعرة التي تهلل للحرمان إن كان فيه عزة النفس والكرامة وترفض الحب إن كان فيه القهر والألم والسجن والإزلال . إذ تقول :

قل لمن كان بالمعنى يلقاني

ويفني بالبشر حين يراني

كيف بالله غيّرته الليالي
فطواني في غمرة النسيان
شغلته شواغل الدهر عني
بعد أن كنت حبه المتفاني
أيها التائه الذي صهر القلب
وفض الربيع ، قبل الأوان
أنت من ضيّع الحقيقة مني
وأشاع الظلام في وجداني
أنت أسلمتني لدوامة الدهر
وأمواجها تهز كياني
أين شوق الهوي وهمس الأماني
وربيع الربى ، ورجع الأغاني
إنما ترتوي الأزاهر بالماء
كما يرتوي الهوي بالحنان
كيف أرضى ، من هاتفي بحديث
عابر منك ، ينقضي في ثوان

لا وربي سأطعم النار قيدى
فأنا لا أذل للسجان
سأولّى لقصة الحب ، ظهري
وأغني لعزة الحرمان

في هذه القصيدة رفض قاطع للهامشية التي تقبع فيها المرأة فهي دائمًا وأبدًا رهن الإشارة تنتظر رضا الرجل وتقنع بفضلات الوقت الذي يمنحها إياه ، يحتل كل حياتها وجسدها وعقلها وحتى نفسها ويتركها تدور مع عقارب الساعة بانتظار بقايا وقته ليعود إليها أو يتكلم معها وكأنه البلسم الشافي . لكنه لم يحسب حساب الغليان الذي يجيش في جسدها المحترق. تضيء له طريق الحب وتحذره وتنذره تطالبه ببعض الحنان لكنه لا يسمع ولا يرى إلا ما يحمله داخله . وهنا إنذار مع التنفيذ . إصرار على الحرية، لا بكاء بعد اليوم . صفعة قاتلة للرجل لم يكن يحسب لها حسابًا. لو أنها قد تسبب زيادة فى التسلط والهمجية والعنف إلا أنها حفرت بأحرف من لهب معنى الحرية على جدار الزمن الحالى . وتركت بصمات الدم على تاريخ السلفية والرجعية والقوقعة ودوي صوت صراخها إلى أجيال وأجيال مضت وسيورق وينمو فى الأجيال المقبلة .

بهذا أكون قد أوردت معظم القصائد التي تحمل بين طياتها

بذور الثورة والتمرد والتحدي ، وبين أحرفها قبس من الضياء نشرته الشاعرة سعاد الصباح كي يبدد ظلمة العقول الكاحلة وينير دروب الحرية المسلوبة لكنها لم تشر إلى الأماكن المظلمة والمتحجرة التى أكلها العفن وعشش فيها الجهل والتخلف وحسب . بل أضاءت الطريق المثلى ، ووصفت لكل مرض دواءً ناجعًا فيه الشفاء والسعادة لكلا الطرفين الرجل والمرأة . فتحت باب السعادة على مصراعيه ، عرّت الخطأ وأشارت إلى الصواب الذي ينضوي على السعادة . لقد كانت المرأة كمضمون فكري وإنسانى في القضايا الهامة التي شغلت عقول المبدعين وطرحت نفسها على الأدب العالمي منذ العصور القديمة التي بدأت معها مسيرة الحضارة.

ولقد لعبت المرأة دورًا أساسيًا نقلته لنا السير الشعبية وأحداث التاريخ وأرست شواهد على وفرة ما تحمله المرأة من ذكاء وإبداع وحكمة ومسؤولية وغيرها . لكنها بقيت متأثرة بنظرة دونية مفادها الإغراء والخطيئة منذ آدم وحواء . وحملوها وزر إخراج آدم من الجنة ، ومسؤولية خطأ الإنسانية .

كان للأدب الإغريقي الدور الأول ، في ملحمة الأوديسا وغيرها ، بوضع شخصية المرأة نبدًا لند مع الرجل وشريكة له في كفاحه وحياته ، وجاء هذا تجسيدًا لثورة المرأة ضد الرجل وعبوديته وقد بلغت تلك الثورة لأول مرة في مسرحية ميديا

وبالطبع لم يتقبل النقاد والجمهور هذا الاتجاه الثوري ، لعدم قدرتهم علي استيعاب فكرة المرأة الجريئة المتحررة . فالمرأة في نظرهم وعرفهم لا تتعدى دورها كأم وزوجة . لكن لابد فى كل مرحلة من وجود طفرات جريئة . فأخذ يتبلور دور المرأة فى تجسيد حريتها وتحقيق ذاتها ، وإثبات وجودها من خلال كاتبات عالميات متميزات بجرأتهن أدركن بأن الأديب عاجز عن تصوير فكر المرأة وسلوكها وإحساسها لعدم استطاعته الإحساس بمستوى الشعور نفسه من القهر والظلم ، فهى أقدر على وصف إحساس وشعور النساء من غيرهن . فبزغت الروائية الفرنسية (مادلين دى سكودري) التي عاشت في القرن السابع عشر . ثم تبعتها الروائية الفرنسية أيضًا (ماري دي لافييت) ثم الأديبة الشهرية (مدام دي ستال) والتي ظهرت باسم (كورين) وكانت لها ريادة جريئة في دراسة سيكولوجية قلب المرأة حين تشعر بالحب . وكتبت غرامياتها الشخصية بصراحة دون خجل كي تثبت للرجل مقدار الظلم والقهر الواقع على المرأة وهكذا امتلأت صفحات التاريخ بأسماء الكتاب والكاتبات الذين طرقوا باب الثورة النسائية ، متحدين بذلك ظروف المجتمع ومؤكدين على المواجهة بين المرأة والرجل ومن أبرزهم الكتاب والشعراء الذين انبثقوا من إنكلترا فمنهم (تشارلز ديكنز) الذي عبّرت رواياته عن قصص الغرام التي تواكب الأحداث والمواقف الواقعية الأخرى.

فالحياة بدون قلب المرأة وحنانها خالية جافة لا قيمة لا . وجاء الإنكليزي (جورج ميريدث) ليثبت أن المرأة ليست قلبًا نابضًا بالحب بل عقلاً ناطقًا بالحكمة والبلاغة أثبت قدرتها على العطاء كمخلوق إنساني متكامل فيما إذا مُزِج عقلها مع قلبها .

إلى أن جاءت الشاعرة سعاد الصباح واحدة من تلك الكواكب الذين شعوا في سماء الأدب . ووجدت في ذكائها الوقاد ، وموهبتها الفذة ، إنسانيتها العارمة ، وقلمها السيال أمضى سلاحًا يمكن أن تنفذ به إلى ظلمة العقول ، وكهوف التقاليد البالية ، وتصلب شرايين الحياة في القلوب ، فتنير الظلمة، وترمم التقاليد البالية وتزرع بذور الخير كل تُزيل المفهوم الخاطئ عن المرأة ، وتُغيير في تراث الشعر العربي الذي يعتبر المرأة بابًا للغزل ، ومادة للوصف وحاجة للتصنيع ، فيتفنن بجمالها ، وسحرها لدرجة الوضاعة أحيانًا ويضعها في قمة المثالية الصوفية أحيانًا أخرى ، لكنها في كلتا الحالتين كانت أداة للتسلية ومخلوقًا ضعيفًا طوع إراداتهم . وشهرت سلاحها في وجه كل التقليديين الذين اعتبروا المرأة أداة لتربية الأطفال ، وإدارة المنزل ، وإشباع رغبات الزوج في النهاية . ووضعها في المجتمع لا يحيد عن وضع العبيد .

فكان الاتجاه الرومانسي الإيجابي الذي يتجه دائمًا لتحقيق الذات وإثبات الوجود خير شاهد لتفجير طاقات المرأة . وملكاتها

العقلية والعاطفية . وقد أبرزت ذلك من خلال قصائدها المختلفة الاتجاهات . هذا وترى الشاعرة من الوجه الاقتصادي والتنموي الذي هو من صميم دراستها، إن لتحرير المرأة إقتصاديًا دورًا هامًا في رفع مستوى التقدم والحضارة ودفع عجلة التنمية إلى الأمام في المجتمع ، فعندما تأخذ المرأة حريتها مساوية لحرية الرجل لابد وأن تساهم بكل الأعمال التي يقوم بها الرجل وتصبح شريكة له بكل شيء من حيث المسؤوليات والواجبات (وقد شهدت نهاية القرن العشرين شواهد ثابتة وأرقامًا قياسية على ذلك) وأبرزت لنا بعض الصائد ما تملكه المرأة من إحساس مرهف ، ووعي وإدراك لمعني المسؤولية ، وثقة بالنفس لا حدود لها ، وعقل حكيم في معالكة كل مشاكل الحياة رغم مرارتها وقسوتها التي لا ترحم ، وتخطيها كل المطبات المحفورة لها عاطفيًا واجتماعيًا و بإصرار عنيف على تحقيق هدفها السامي . حيث لم تعد المرأة تبحث عن السحر ، والتنازلات ، والإغراء الجسدي الذي ألبسوه لها ، والتبعية . لا بل لم تعد تحترم الرجل الي يبحث عن هذه الصفات، لأنها تدل علي تفاهته ، وتصلبه وتعلقه بالسلفية المتحجرة، بل تريده رجلاً قويًا حكيمًا متحضرًا ، مثقفًا لا متعلمًا يتطور مع زمنه الذي يعيشه . ويلفظ كل الصفات التي تفيده تجاه نظرته للمرأة نظرة الند للند ، ويرغب لها كل ما يرغبه لنفسه دون أي شعور بما يميز الرجل عن المرأة في العرف والعادة . وهناك

قولٌ : (إن علمت رجلاً فأنت تثقف فردًا ، وإذا علمت إمرأة فإنك تثقف مجتمعًا) لما للمرأة من شأن عظيم في تربية النشئ الجديد الذي يحبو على ذراعها وينمو ويورق بين أحضائها ومن أنفاسها . .

في نهاية النهاية أرى مع الشاعرة إن أبسط التهم يمكن أن يوجهها المجتمع المتخلف إلى الأديبة ، التي تفصح عن مكامن الوعي واللاوعي داخل الأنثى ، عندما تطالب بحقها كما تُطالب بواجبها . إنها غانية أو متهورة أو . . . إلخ . وكأن الصدق ، والجرأة ، والصراحة ، والإستقامة والوفاء ، والإخلاص ، والوعي ، والإدراك ، والروية ، والحكمة ، والمنطق ، والعلم ، والقوة ، كلها صفات الغانية اللعوب .

والخنوع ، والإذلال ، والخداع ، والنفاق ، والغباء ، والتفاهة ، والسطحية ، والجهل والضعف ، والإستكانة ، والعالة، صفات المرأة النموذجية التي يرغب بها الرجل التقليدي والمجتمع المتخلف فهو يحارب الأولى بحجة مخالفة التقاليد والعادات والخروج عن دائرة المألوف التي يرغب بدوامها . ويحارب الثانية بحجة إفساد المجتمع وأيضًا الخروج عن المألوف . والثانية دائمًا وأبدًا هي من صنع المجتمع يصنعها ويحاربها . فكيف ؟؟ !! . .

صور التمرد فى

سعاد الصب

أ. فضل الأمي

صور التمرد في قصيدة سعاد الصباح

غريبة أن سعاد الصباح خرجت من عصر «التنك» وعصر الخيمة وعصر الحريم ، ثم لم تدخل في عصر «الصفيح» ولا في عصر «النفط ولا في عصر الفيلات والقصور المنيفة . . خرجت من تلك ومن هذه ودخلت في عصر الزمان بكل حيثياته وتفاصيله ، وهمومه ، وشؤونه وشجونه ، ومآسيه وفواجعه ، ومواسمه ، أيامه ، واكتشافته ، ومدائنه .

يقولون : إني كسرت رخامة قبري ..

وهذا صحيح

وإني ذبحت خفافيش عصري ..

وهذا صحيح

وإني اقتلعت جذور النفاق بشعري .

وحطّمت عصر الصفيح

فإن جَرَّحوني ..

فأجمل ما في الوجود غزالٌ جريحْ
وإن صلبوني .. فشكرًا لهمْ
لقد جعلوني بصفِّ المسيحْ

يقولون ، ويقـولون .. فتضـحك من أقوايلهم وتسـخر من منطقهم :

وأضحك من كل ما قيل عني
وأرفض أفكار عصر التنك
ومنطق عصر التنك
وأبقى أغني على قمتي العالية
وأعرف أن الرعود ستمضي
وأن الزوابع تمضي
وأن الخفافيش تمضي
وأعرف أنهمُ زائلون
وأني أنا الباقية ..

وفي مواجـهة ثانيـة للذين زعموا «أن الكتـابة إثم عظيم» إذا مارستـها امرأة ، لأن «الكلام امتـياز الرجال» ، نسمع الـدكتورة سعاد الصباح تعلن بصراحة :

إنني مجنونة جداً

وأنتم عقلاء

وأنا هاربة من جنة العقل ،

وأنتم حكماء

أشهر الصيف لكم

فاتركوا لي انقلابات الشتاءْ .

أنا في حالة حب

ليس لي منها شفاء

وأنا مقهورة في جسدي

كملايين النساءْ

ثم تلتفت إلى الحبيب ، تواجهه ، تصارحه تغازله ، تعترف في حضرته ، تستدعيه ، رافضةً قاعدة : «قلتُ ، فقالتْ» ، مقررةً ان الحب لا تُقَنِّنُهُ قواعد البروتوكول .

يا حبيبي

إنني دائخة عشقًا

فلملمني بحق الأنبياء

أنت في القطب الشمالي ..
وأشواقي بخط الاستواءْ
يا حبيبي
إنني ضد الوصايا العشر ..
والتاريخ من خلفي رمال ودماءْ ..
إنتمائي هو للحب .. وما .. لي
لسوي الحب انتماءْ
وطني ..
مجموعة من شجر الليمون في صدرك ..
والباقي هراء بهراءْ ..

ترى من أين جاءت هذه «الشيخة» بمثل هذا القول ؟ من أعطاها الترخيص بأن تغني ؟ كيف أوتيت القدرة على أن تخرج من مقصورة الحريم ؟ من سمح لها أن «تفتفت» جسدها وروحها وعواطفها على هذه الصورة :

يا صديقي :
في الكويتيات شيء من طباع البحر ، فادرسْ
- قبل أن تدخل في البحر - طباعي ..

يا صديقي :

لا يغرَّنْكَ هدوئي .. فلقدْ

يولد الإعصار من تحت قناعي ..

إنني مثلُ البحيرات صفاءً

وأنا النار .. بعصفي واندلاعي ..

يا صديقي :

إن عصر النفط ما لوَّثني

لا ولا زعزع بالله اقتناعي

أنت لو فتشت في أعماق روحي

لوجدت اللؤلؤ الأسود ..

مزروعًا بقاعي

يا صديقي

يا الذي اعشقه حتي نخاعي

كل ما حولي فقاعات من الصابون والقش ،

فكن أنت شراعي ..

هذه الكويتية الرافضة ، التي «ملَّت من غبار الطوز واشتقات

إلي ظل البساتين وإيقاع النوافير ، وأصوات الطيور» . هذه الكويتية - تعلن الشاعرة - مازالت «في معركة كبرى مع التاريخ لم تحسم» . لذلك قررت أن تحسمها لمصلحة بنات جنسها فهل وفقت ؟

يبدو أن المعركة ترواح سجالاً بين «الكويتية» و «المماليك» :

أيها السيد .. إني امرأة نفطية

تطلع كالخجر من تحت الرمالِ ..

تتحدي كتب التنجيم والسحر ..

وإرهاب المماليك ..

وأشباه الرجالِ ..

إنني فاطمة ..

أصرخ كالذئبة في الليل

وسيارات أهل الكهف جاءت لاعتقالي

ومعركة «الكويتية» ليست معركةً ضد تسلط الرجل فحسب ، الرجل «الفرعون» الحاكم بأمره ، «القمر الأناني» الذي «تعقّده انتصاراتها» . . وليست معركة ضد التقاليد بحسب . بل هي معركة ضد «لعنة النفط» أيضًا:

ثم حلت لعنة النفط علينا
فاستبحنا كل ما ليس يباحْ
فالبساتين فراش للهوي
والنساء الأجنبيات
يعطون لياليا الملاح
والدنانير على الإقدام ترمي
وعلى الأجساد تصطف القداح ..
هكذا يا وطني ترفع رايات الكفاح !!
هكذا يبكي على الحائط سيف
أثري لأبي
هكذا من يأسه يبكي السلاح
وطني أصبحت لا أعرفه
هل هو البازار ؟.
والشيكات من غير رصيد ؟ .
ودكاكين القمار ؟ .
هل هو الخمسون هامورًا يجوبون البحار ؟ .

هل هو الشعب الكويتي الذي

تذبحه المافيات في ضوء النهار ؟ .

أقرأ ويعاودني السؤال : من علم هذه «الشيخة» مثل هذا الكلام ؟ .

ومن علمها هذا الغضب الثوري :

إن في لبنان أطفالاً يموتون ..

وعرضًا يغتصب ..

اغضبي أيتها الأرض ،

فإن الأرض لا يفلحها غير الغضب ..

ومن علم «الشيخة» هذا البكاء ؟ . وهذا الحزن :

كلما مر ببالي ، عرب اليوم ، بكيتْ

كلما فكرت في حال قريش ،

بعد أن مات رسول الله

خانتني دموعي ، فبكيت

كلما أبصرت هذا الوطن الممتد

بين القهر والقهر .. بكيت

كلما حدّقت في خارطة الأمس
وفي خارطة اليوم ، بكيت
كلما شاهدت عصفوراً بروما
أو بباريس .. يغني
دون أن يشعر بالخوف .. بكيت
كلما شاهدت طفلاً عربيًا
يشرب البغضاء من ثدي الإذاعات
بكيت
كلما شاهدت جيشًا عربيًا
يطلق النار على الشعب .. بكيت
كلما حدثني الحاكم عن عشق الجماهير لهُ
وعن الشوري .. وعن حرية الرأي ..
بكيت
كلما استجوبني بوليس قطر عربي
عن تفاصيل جوازي
عدت من حيث أتيت

هذه «الشيخة» الكويتية ، قالت في «فتافيتها» ما لم تقله كل مواد الحداثة في شعرنا العربي المعاصر . قالتها بلغةٍ طالبها فحول الحداثة فأخطاؤها ، ووقعت عليها هي ، فالحداثةُ - في يقيني - هي أن تتواصل مع العصر ، وأن توصل ما تحمحم به النفس ويصهل به القلم لأبناء العصر، بلغتهم ، لا بلغة القرن العاشر أو القرن الخامس والعشرين . وهذا ما فعلته د. سعاد الصباح في مجموعتها ، التي تستحق وقفة نقدية متأنية، بعد هذا العرض الذي داعب المفاصل دون أن يلامس التفاصيل.

ما من شاعرة عارضها جيلها بقوة كسعاد الصباح ، وما من شاعرة قرآها جيلها بكثافة كسعاد الصباح ، وما من شاعرة تجاوزت جيلها بجرأة في شعرها ، كسعاد الصباح ، وما من شاعرة عبَّرت عن جيلها في شعرها، كسعاد الصباح .

في هذا الإطار من الشيء وضده ، ومن الحالة ونقيضها ، تطل صورة الشاعرة سعاد الصباح سويةً ، واضحةً ، معبرةً ، بريئةً ، صادقةً، ضالعةً في الإبداع ضلوع العاشقين في الوجد ، وضلوع الشهداء في البذل.

سيظلون ورائي ..

بالبوارید ورائي ..

والمجلات الرخيصات .. ورائي

فأنا أعرف ما عُقْدَتُهم

وأنا أعرف ما موقفهم

من كتابات النساء

غير أني ما تعودت بأن انظر يومًا للوراء

فأنا أعرف دربي جيدًا

والصعاليك ، علي كثرتهم

لن يطالوا أبدًا كعب حذائي

لن ينالوا شعرة من كبريائي

فلقد علمني الشعر بأن أمشي

ورأسي في السماء

وإذا كانت سعاد الصباح قد قرعت الباب في باكورتها «أمنية»، ودخلت الهيكل فى «إليك يا ولدي» و واعتلت المنصة في «فتافيت امرأة»، فإنها أعلنت خطابها الشعري في مجموعتها الرابعة «في البدء كانت الأنثى» التي صدرت مؤخراً عن «دار رياض الريس للطباعة والنشر- لندن» .

وخطاب سعاد الصباح في مجموعتها الجديدة يبدو ، على تفرده ، مكملاً للمسار (الإبداعي والفني والفكري) الذي بدأته

في المجاميع الثلاثة الأولى ، ولا سيما في «فافتيت امرأة» . فالهاجس الطاغي هو هاجس الحب ، كعلاقة إنسانية بين المرأة والرجل . وهو عينه الهاجس الذي طغي على «فتافيت امرأة» لولا بضعة نصوص مشتقة من كتاب الوطن فرأناها في تلك المجموعة ، ولم نعثر على شبيه لها في المجموعة الأخيرة «في البدء كانت الأنثى» التي بدو أنها كتابُ حبٍ من الغلاف إلى الغلاف.

وإذا كان العشق العربي حافظ على نقاء عذريته على مر العصور ، بالقياس إلى الفجور والتهتك اللذين عرفتهما طقوس العشق عند الأوروبيين في حقب مختلفة ، فإن الغرب الأوروبي نفسه حاول ويحاول وصم الشعق العربي لما ليس فيه من فجور وتهتك ورسوفٍ في مادية حسية خالصة ، مبرهنًا علي ذلك بما شاع في «ألف ليلة وليلة» من أجواء إباحية ، وبحكايات منسوبة لعصر الحريم ، أو لعصور قراصنة البحر من تجار الرقيق، في حين أن تلك الظواهر المزعومة ، على افتراض صحة حصولها، هي ظواهر الشذوذ عن القاعدة العامة التي هي عذرية الاحتشام والتعفف في الحب .

ومثلما كان لكل فرع من فروع النشاط الإنساني من ينهص بكتابة تاريخه ، فقد نهض الشعراء العرب والأدباء العرب من

رواة وقاصين بهذه المهمة ، بدءاً من امرئ القيس وعنترة ومروراً بعمر بن أبي ربيعة وابن الملوّح، وصولاً إلى سعاد الصباح في حين أن الشعوب الأخري عرفت من أرّخ للحب بالريشة وبالإزميل أو بالنغم . وإلى كتابة تاريخ النشاطات الإنسانية بفروعها المختلفة ، عرفت شعوب الأرض من نهض بسَنّ التشريعات التي تنظم العلاقات الإنسانية في نطاق هذا النشاط أو ذاك . ويؤثر للشعراء العرب أنهم أولوا مسألة التشريع والتقنين في نطاق العشق ، ما تستحقه من رعاية :

ليست الديموقراطية

أن يقول الرجل رأيه في السياسة

دون أن يعترضه أحد

الديموقراطية أن تقول المرأة رأيها في الحب دون أن يقتلها أحد .

هذا التعريف للديموقراطية هو نص من نصوص الديوان أعلنته الشاعرة بمرسوم اشتراعي !

وبمرسوم اشتراعي آخر أعلنت شرعية الحب :

لا أطلب من هذا العصر

أن يعترف بشرعية حبنا

فأنا ، أنت

نمنح هذا العصر شرعيته

و «الإعلانات الدستورية» في جمهورية العشق ليست حكرًا على مرجعية واحدة ، ففي قلب كل شاعر أو شاعرة من رعاياها حوزة اجتهاد عامرة بالمريدين . . بيد أن حوزة سعاد الصباح تظل مفتوحة على أحدث مصاحف الحب .

كل الديانات تنتقل إلينا

بالوراثة

إلا الحب ..

فهو الدين الوحيد

الذي يخترع أنبياءه ..

وهى أيضًا مفتوحة على كل الاكتشافات الحديثة في التاريخ والجغرافيا وعلم الاجتماع :

لأن الحب عندنا

انفعال من الدرجة الثالثة

والمرأة مواطنة من الدرجة الثالثة

وكتب الشعر ، كتب من الدرجة الثالثة

يسموننا شعوب العالم الثالث

ولئن نهضت سعاد الصباح بمهمات التأريخ للحب ، وسنّ فوانينه ، وأرشفة الاكتشافات العلمية المتصلة به بسبب ، فإنها لم تهمل وضع معجم مصطلحاته العشقية على اختلافها ، ففي «باب» مصطلح «أعلى شجرة في العالم» نقرأ الشرح التالي :

عندما كنت طفلة
كنت أتصور أن الشجرة
هي أعلى مكان في العالم
وعندما أصبحت امرأة
وتسلقت على كتفيك
عرفت أنك أكثر ارتفاعًا من كل الشجر
وأن النوم بين ذراعيك لذيذٌ لذيذ
كالنوم تحت ضوء القمر

وتحت عنوان «التوقيت النسائى» نقرأ في قاموس الوجد :

لا يوجد توقيت شتوي
لمشاعري
ولا توقيت صيفي لأشواقي

إن ساعات العالم كلها

تضرب في وقتٍ واحد

عندما يحين موعدي معك

وحينما تفتش في القاموس عن كلمة «المتفوقة» فإنك تجد معناها على الصورة التالية :

كنت أدري - قبل أن أولد - اني

سأحبك

بعد أن جئت إلى العالم ..

مازلت أحبك

إن أعظم أعمالي ، التي

حققتها كأمرأة ،

أني أحبك

ونقرأ تعريفات مماثلة للعناوين التالية :

المصلية ، حبة كرز ، هستيريا ، إكسبرسو ، فضول ، دعاء ، حماقة ، عصافير ، ثقافة ، رصاصة ، ازدواجية ، الخاتم ، عقوق ، إجازة ، أمومة ، الملك ، المعلم ، دراكيولا العربي ، تحليل ، ابتزاز ، حلم .

ولم يكن لقاموس عصري كقاموس سعاد الصباح أن ينسى مصطلحات الطب والطب الوقائي ، فتحت عنوان «ضربة شمس» نقرأ :

يقولون لي في سويسرا
البسي ثيابًا صوفية سميكة
كي لا تصابي بضربة برد
أطعتهم .. وتدثرت بألف قبعة
وألف كنزة صوف
ولكنني رغم كل ما حصّنت به
جسدي
نسيت أن أحصن قلبي
فأصبت بضربة حب

ومن المصطلحات الطبية إلى المصطلحات العلمية :

الحب هو إنقلاب في كيمياء الجسد
ورفض شجاع لروتين الأشياء
وسلطة البيولوجيا

(من مقطوعة بعنوان الكيمياء)

في عز الصيف

تصطدم أنوثتي

بقطرة عرق صغيرة

تكرج على صدرك

وأنت قادم من جهة البحر

فيتكهرب العالم

وتهطل الأمطار

(نص بعنوان كهرباء)

هذا القاموس الفريد ، قدم للراغبين شرحوات وفاية لمصطلحات العشق ولمفردات الوجد ولجُمل الحب المعترضة .

اللغة الثالثة :

بين لغة العموديين والتفعيليين الشعرية ، ولغة أصحاب قصيدة النثر، قامت لغة ثالثة مثلتها الشاعرة الصباح أفضل تمثيل، ووضعت قواعد صرفها ونحوها التي تقول إن الحداثة هي موقف قبل كل شيء . ولا يكون التعبير عن موقف عصري إلا بلغة عصرية .

الموقف أعلنته الشاعرة في جميع قصائدها ، وجسّده نص في المجموعة عنوانه «أنثى ٢٠٠٠» تقول كلماته :

قد كان بوسعي ، مثل جميع
نساء الأرض
مغازلة المرآة
قد كان بوسعي أن أحتسيَ
القهوة فى دفء فراشي
وأمارس ثرثرتي في الهاتف
دون شعور بالأيام ..
وبالساعات
قد كان بوسعي أن أتجمّل ، أن اتكحّل ، أن اتدلّل ،
أن أتحمص تحت الشمس
وأرقص فوق الموج ككل
الحوريات
قد كان بوسعي أن أتشكل
بالفيروز وبالياقوت

وأن أنثى كالملكات

قد كان بسوعي أن لا أقرأ شيئًا

أن لا أكتب شيئًا

أن أتفرغ للأضواء ، وللأزياء ،

وللرحلات .

قد كان بوسعي أن لا أرفض ،

أن لا أغضب ،

أن لا أصرخ في وجه المأساة

قد كان بوسعي أن ابتلع

الدمع .

وأن ابتلع القمع ،

وأن .. أتأقلم .. مثل جميع

المسجونات

قد كان بوسعي

أن اتجنب أسئلة التاريخ

وأهرب من تعذيب الذات

قد كان بوسعي أن أتجنب آهة
كل المحزونين ،
وصرخة كل المسحوقين ،
وثورة الاف الأموات
لكني خنت قوانين الأنثى
واخترت مواجهة الكلمات

هذا الموقف من الوجود من خصوصية الذات وخصوصية البيئة وخصوصية التقاليد ، هو موقف عصري يجسّد حداثة ذهنية استجابت لغة التعبير لاحتوائها بجدارة ، ذلك أنها كمفردات وكتعابير ، فُصِّلَتْ على مقاس العصر ، سهولة ويسرًا ، ومباشرة. وهي سمات تطبع اليوم الحياة العصرية على عكس ما يدعيه البعض ويفتعله من تعقيد تحت شعارات تُزيف الصورة العصرية :

علمتني ، من بين ما علمتني
أن أشرب قهوة الإكسبرسو
في المقاهي الإيطالية الصغيرة
علي شواطئ كومو ،

وفينيسيا ، وسان ريمو

وبعدما رحلت

رحلت الحضارة الرومانية معك

وقتل يوليوس قيص

وصارت رائحة الإكسبرسو

تدخل كالسكين في خاصرتي

هذه اللغة الشعرية البسيطة الصريحة المباشرة ، السهلة الممتنعة، هي ما عنيته بتعبير «اللغة الثالثة» . حيث توافيك الفكرة عارية كعروس البحر، فتبهرك ، وتسرقك إلى عوالمها المسحورة، ثم إنها بصورتها والإطار ، تظل بنت العصر بكل ما تعنيه إنجازاته، وحروبه ، واضطراباته ، ومعضلاته ، وأزماته :

أنت كالاستعمار القديم

تضع يدك على مناجمي

وقمحي ، فاكهتي ، ومعادني

وثرواتي الطبيعية ..

وتتشبث بالأرض ..

وصاحبة الأرض ..

وأنا لا أريد أن أطردك

وأُغرق سفنك الراسية في مياه

عينيّ ..

ولكنني أريد أن تمنحني

- ولو على سبيل التجربة -

نوعًا من الحكم الذاتي

اللغة الثالثة هذه لم تبتدعها سعاد الصباح ، ولا هي ادعت ذلك ، فقد سبقها إليها نفر من أهل الصنعة في مقدمتهم الشاعر نزار قباني ، الذي يعتبر صاحب مدرسة في هذا المجال . . بيد أن سعاد الصباح تجاوزته حينما نقلت حكايات العشق النسوي من دفتر السيناريو النزاوي إلى خشبة المسرح ، وحينما ألغت الحجاب الحاجز بين الموقف الشعري واللغة الشعرية ، وهذا ما لم يفعله نزار نفسه ، إذ حفظ للكلمة شيئًا من القداسة، فجردتها منها سعاد الصباح وألقت بها بين أقدام المعنى ، فلم تعد الكلمات حبات عقد ، كما ينضدها نزار ، بل تحولت إلى خدم للمعاني تمامًا كما يخدم الرصاص المسكوب في المطبعة ، نصًا جميلاً .

* * * * *

الرفضُ وَالتمرّد

فى شعر سعاد الصباح

د. مها خير بك ناصر

الرفضُ والتمرّد
فى شعر سعاد الصباح

لم تكن الصباح مصوِّرة تلتقط الصور الاجتماعيّة الواقعيّة فحسب ، بل اعتبرت الحضور الإنسانىّ منطلقًا لقضيّتها ، والتمرّد طريق هذه القضيّة، ومحورها الرئيس .

والتمرّد لا يكون فى الخارج والشكل ، وإنّما فى الجوهر ؛ والتمرّد الحقيقىّ هو الذى يعلن موقفه من الأشياء ويصوّرها تصويرًا حقيقيًّا من دون تغليف، ثمّ يعيد النظر فيها ، ليلغى ما غير جدير بالحياة ، يبدّل ويخلق ويجدّد، معينة مغامرة الكشف، وحبّ المعرفة، ووعى للحضور الإنسانىّ .

استشفّت السعاد أبعاد العلاقة الإنسانيّة، ورسمت صورتها المجتمعيّة، وأظهرت بعض جوانبها ومسبّباتها ، ثمّ دعت إلى رفض ما يعيق تواصل هذه العلاقة من الأفكار السلفيّة ، والحكايا والشرائع ، والتقاليد التيسنّت لزمانٍ غير زماننا ، مع المحافظة على القيم والأصول التى تصون كرامة المرأة وعظمتها . تقول بلسان المرأة العربيّة المتميّزة :

أنا النخلة العربيّة الأصول

والمرأة الرافضة لأنصاف الحلول

فبارك ثورتى

إنّ التصادم بين الشاعرة والعدوانيّة المتكرّرة ، والقوى الخارجية تركها عرضة للانفعالات والردود التى تدافع بها عن مقوّمات فرديّتها ، فعصفت فى خلجان نفسها جراح كبرياء المرأة العربيّة ، وبدأ فعل المقاومة يحفّز السير إلى الأمام ، إنّه سيرٌ مسلّح بالطاقات والإمكانات الذاتيّة وبالرغبة فى إثبات الحقّ ، سير هدفه الحدث وفعله فى صيرورة التاريخ ، وأشكاله سلوكيّة خلقيّة رياديّة :

معذرة ... معذرة

لن أتخلى قطّ عن أظافرى .

فسوف أبقى دائمًا

أمشي أمام القافلة ...

وسوف أبقى دائمًا ...

مقتولة ... أو قاتلة .

إنّ عدوانيّة الواقع تزيد من صلابتها وقدرتها على المسير ؛ لأنّ الصدمة التى لا تقتل تعطى القوة ، فتتمنطق الصباح بالتمرّد وتعلن عصيانها ورفضها لواقع مستقرّ فى أفعال الأمر والنهى ، منتشيًا بمراقبة قطيعه على دروب الطاعة المستكينة، فيأخذ تمرّدها شكل الولادة المستقبليّة ، ويصبح الرفض هدمًا للأعراف والشريعة

المتحجّرة بشقّيها الدينيّ والاجتماعيّ ، ومفهومها الموميائيّ الذي يرغم المرأة على الطاعة العمياء :

لن تدخلني بيت الطاعة ...

فأنا أمرأة ...

تنفر من أفعال النهى ...

وتنفر من أفعال الأمر .

رفضت تقديس الماضي ، والاستسلام إلى القرارات التعسّفيّة، فمارست رفضها بعدم المبالاة بالأحاديث ، والنقد ، والآراء ، والأفكار المتداولة ، سلاحها العزم ، والتصميم والكبرياء لتفتح طريق الرفض والتمرّد أمام الأنثى العربيّة ، كى لاتبقى صورة عن أشباح الماضى ، بل صورة متجدّدة فى قلب الحياة فيكتب لها الخلود والسموّ :

وأضحك من كلّ ما قيل عنّى

وأبقى أغنّى على قمّتي العالية

والتمرّد في شعرها مبرمج عقلانيًّا ، مؤسّس على علاقات إنسانيّة ، فالزواج ليس ضمانة الاستمراريّة بالإنجاب ، إنّه علاقة سامية ترتفع بعنصريها إلى مرتبة الأصل والخلق ، ولذلك يجب أن يتخلّص الزوجة من نظرته السلفيّة ، ومن الموروث الشعبيّ وأن تعلن المرأة تمرّدها على واقع يعتبرها سجّادة تحتاج إلى ضرب من

وقت إلىآخر ، ويعتبرها قطعة من الممتلكات ، وعليها فى الوقت عينه أن نلبّي نـداءات الحقيقـيّ والفعليّ في أعمـاقها ، لتـزيل ما يعيق الثـورة ، بجرأة ، سلاحـها التـصميم والإرادة والرغـبة فى بلوغ الهدف :

سأنسف ...

هذي السماوات

نجمًا ... فنجما

ولن أتنازل عمّا أريد

تميز رفض الصباح بالجرأة والـوضوح ، والمنطق ، والثقافة ، فكانت ثقافتها طاقـة كامنة عن فاعليّة قضيّتها ، فتـشرعن انتقامها علانيّة من الرجل، كـما فهم هو تشريع الله له فـى كـتـابه العزيز أن يتـزوّج مثـنى وثلاثًا ورباعًا ، فألبست شعرها بعدًا ثقافيًّا دينيًّا وإنسانيًّا ، وأعلنت موقـفها من التأويل والتـفسير الذى يسـخره المذكر لخدمة أهـوائه لخدمة أهوائه.

مارست الصباح ، فى إعلان ثورتها ،أسلوبًا قانونيًّا ؛ لأنّ ما تقوم به ليس سببًا ، وإنما من مسبّبات أوصلتها إلى مرحلة الدفاع عن النفس ، والتى لا تضـمن نتـائجهـا إلاّ بارتكاب جرم القـتل بشكـل علنيّ مـن دون خـوف : «العين بالـعين والسنّ بـالسن والبادىء أظلـم» ، أليـست بشرًا ويحقّ لها الانتقـام ؟ لقد مثّلت

جريمتها على مسرح الحياة من دون خوف وانتقمت للنساء اللواتي دفنّ قرونًا تحت أطلال شريعة بائدة وهي تدفن الرجل تحت أطلال أفكاره التي جعلت من القتيل قاتلاً ، ومن القاتل مقتولاً .

سأعلن يا أيّها الديك ...

أنّي انتقمت

لكلّ نساء العشيرة منك وأنّي طعنتك ...

مثنى ...

ثلاثًا ...

رباعًا ...

وإنّي دفنتك تحت الطلول

ولن أتراجع عمّا أقول

والانتقام - في شعرها - يأخذ بعدًا تاريخيًّا وإنسانيًّا ، منذ الجاهليّة وحتّى اليوم ، من دون أن تبالي بشبح التاريخ وسيطرة حضوره ، فلقد اتّخذت منه غمدًا لتستلّ سيف الجرأة والتمرّد على الخوف والتردّد ، فهاجمت واقعاً غيّر في شكله الخارجيّ وظلّ في داخله جمجمة تستعمرها التقاليد ورجلاً تحصّن بثقافة مستعارة ليثبّت حكم شريعته البالية ، فتدعوه إلى الاستمرار في همجيّته والاستسلام إلي جاهليّته الفكريّة وقبليّته الحياتيّة .

لن تبالي بهمجيّته ولا بغزواته الاستعماريّة ؛ لأنّها تحصّنت بالمعرفة التى جعلت من جسدها أرضًا محرّمة لا يمكن الاستيلاء عليها ،وجعلت من فكرها معقلاً للمعرفة وأنكرت تقلّبات العواطف ، وعبّرت عن ذلك بقولها :

تصرّف ...

ككلّ رجال القبيلة ...

غزوا ... وفتكًا ...

وكرًا وفرًا ...

فليس بتاريخ جهلك ... شيء جديد ،

(...)

فجسمي أرض حرام ...

وعقلي ثلاّجة للجليد ...

وكأنّى بسعاد الصباح تريد من خلال الدلالات اللفظيّة فى هذه القصيدة أن تظهر قبيلة الرجال كلصوص قادمين من الصحراء يعالجون حصون المدينة الفاضلة ، وينهزمون يمّ يعيدون الكرّة لنهزموا ، وتنحدر الصورة الذكوريّة لتصل إلى درجة التقزيم والانحطاط ناهيك عن حالة الجهل التي عبّرت عنها صراحةً . في هذا الواقع صمّمت على إثبات شرعيّة الرفض لتخترق أساليب

القمع والإرهاب ، فـيتّخذ التمـرّد شكل الجنون والحرّية . والمرأة المتوهّجة بجنون معرفتها لاتبالى بتصرّفات الرجل الشرقيّ ، لأنّها تحصّنت بالرؤيا المستقبليّة الواعـدة ، فيأتي الرفض مرادفًا للتحدّي وهدم الأشكال الموروثة والأعراف المستبدة ، ويأخذ طريق التقريع والتحقير ويكون الجنون نوعًـا من الرؤيا التي ينجذب فيها المجنون إلى عالم المثل غير مبالٍ بالعادات والتقاليد والقيم المصنوعة .

إنّ عالمه مخالف ومغاير ، عـالم من الحرّية والانعتاق ، عالم من الانعـفـالات والتـرقّي ، لا يمكن أن يدركـه إلاّ من توهّج بجنونه، وفى هذا العالم المصنوع من التمرّد لا يستطيع الرجل ذو الشكل المستعار والقوّة المستعارة أن يبلغ مستوى الارتقاء أو الرؤيا، وبالتالى لن تستطيع المرأة أن تهدم أحلامه المدّية وتطلّعاته .

تصرّف

كذئب يجيد ثلاث لغات

فلن تستطيع اختراق حصوني

ولن تستطيع احتواء جنوني

ولن يستطيع جنودك

أن يشربوا قطرة

من سواد عيوني

هذا المنحى الرفضيّ لم تدعُ إليه الصباح لو لم يؤسّس له الرجل بظلمه التاريخيّ ، وبالتالي كان تهجّمها على الرجل الشرقيّ من صنع الرجل نفسه ؛ لأنّ تعاليه أفقده حاسّة التمييز بين الحقّ والباطل ، وبين التسليم والتمرّد ، فكلّ أنثى هدف لسهامه ، والحبّ ألعوبة وتسلية . وعلى المرأة الخالقة أن توقظه من سكرة النصر المزيّف ليعود إلى وجدانه وضميره ويعترف بحبٍّ حقيقيّ ، أو ينالا معًا عقابًا متساويًا .

...

سأصرخ :

حتّى سقوط السماوات ...

فوقي ، وفوقك ... يا سيّدي

ولن أتراجع عمّا أقول ...

والرفض في شعر الصباح يكتسي ثوب السخريّة واللامبالاة، فقبول الشيء وعدم الاكتراث به شكل من أشكال الرفض ، فأفكار الرجل الشرقيّ وثقافته المبنيّة على الخوف من المرأة وعليها ، المستمدّة من كتاب ألف ليلة وليلة لا تعنيها ؛ لأنّه هو الخاسر الوحيد عندما يجد نفسه في نهاية المطاق آلة لا تشعر ولا تحسّ ، لذلك عليه أن ينفض عن عاتقه غبار الموروث، ويهدم البنية السلفيّة السطحيّة في أفكاره ومعتقداته :

...

فاحتفظ بذاكرتك المعدنيّة كما تريد ...

فإنّ آخر اهتماماتي

أن يحبّني (كومبيوتر) ...

إلى جانب الرفض الساخر مارست الصباح رفضها بالقبول السلبيّ ، إنّها لا تلغي أشكال الواقع ، ولا تدعو إلى هدمها بل تمارس رفضها وهدمها الضميّة بعدم الاكتراث ، مبدأها في سلوك القبول مستمدّ من قانون الحياة :

إذا لم تستطع أن تغيّر العالم ، اعمل لتدخل ضمن اللعبة التي تصنع الأشكال، وادخل بأسلوبك الشخصيّ مزايا بعض المظاهر وتقلّباتها، كن محرّكًا «للمريونات» ولا تكن دمية .

عندما تدخل فى نفوس الآخرين الاطمئنان تستطيع أن تتسلّل من خلال النعاس المسترخي إلى حقيقة الحل وتسرق اللحظة التي تفرض ذاتها على الواقع ، وباكتساب فاعليّة لحظة زمنيّة من عمر الوجود تمتلك تثبيت ذلك ، وتثبيت الذات هو نوع من تعميق الصلة بالجذر ، وبالعودة إلى الأصل تقوى الثقة بالنفس ، وبالثقة تشر عن الذات عمليّة تعرية الواقع.

بهذه الفرضيّة تعلن الصباح التماهي التام بالرجل ، وانتماءها الطوعيّ إليه وارتباطها الوجدانيّ والقوميّ به ، واعتناقها تعاليمه

وأفكاره كلّها حتّي صارت نسخةً عنه ، وتغذّي غروره باعترافها بسيادته ، ومناداته «مولاي» ؛ لأنّ الرجل يطربه التالية :

أيّها السيّد : ماذا بمقاديري فعلت ؟
لم يعد عندي انتماء غير أنت ...
إنّك القوميّة الكبرى التي تربطني
وتعاليمك - يا مولاي - أحلى ما قرأت
كلّ أوراقي التي أحملها في سفري
فوقها رسمك أنت
والمرايا لا أرى وجهي بها
بل أرى وجهك أنت .

هذا الرفض الاستلاميّ قدّمت له الصباح برفض قائم على التهديد والوعيد مبشّرةً بولادة المرأة العربيّة المتحدّية كلّ الإسقاطات الخارجيّة على حياتها ، لتلغي سيطرة الإرهاب القائم على التخريف والسحر والشعوذة معلنةً ثورتها المؤجّجة بفاعليّة النفط النفسي ، تسلّحه بانبعاثها القسريّ من تحت ركام التواريخ ، وما تحمله من أكاذيب وادّعاءات وإرهاب وسيطرة ذكوريّة لم يكن لأصحابها أيّ صفة من صفات الرجولة ، ناعتةً إيّاهم بأشباه الرجال .

أيّها السيّد ... إنّى امرأة نفطيّة
تطلع كالخنجر من تحت الرمال
تتحدّى كتب التنجيم
والسحر
وإرهاب المماليك
وأشباه الرجال .

إنّ الشعر مع السعاد بوّابة الولوج إلى عالم الرفض والحركة وإثبات الذات المتجذرنة فى أصالتها . لذلك حاولَتْ هدم البنى الاجتماعيّة الموروثة وإقامة بنية جديدة يكون للمرأة فيها دور فاعل، ومحرّض على وجود حركة دائمة نحو التجديد المبنيّ على منطق التحوّل لا الثبات ؛ فيستضيء واقع المرأة بلهب التحوّلات عبر الحضور الفاعل بالفكر ، وتتّحد الأنثي بشخصيّتها الجديدة المتحرّرة من التبعيّة ، رافضة الخوف ومتسلّحة بالفكر والقوّة والتمرّد ، والتحدّي ، معلنةً عدم مبالاتها بالقوّة الخحارجيّة التى تلاحقها لتعيق سيرها نحو الأمام ، فتتحرّر من القمع الخارجيّ وسلطته بالنفى المطلق لواقعها الاستسلاميّ :

ليس في إمكانهم
أن يقمعوا صوتي ...

ولا أن يقمعوني

ليس في إمكانهم

أن يوقفوا برقي ...

وإعصاري ...

وأمطار جنوني ...

هذا التمرد على العالم الخارجيّ وعصيان قوانينه ، ورفض هيمنته وسلطته ، يجب أن تسبقه المرأة بهدم لوثنيّتها الأنثويّة التي استعبدتها في أشكال خارجيّة ، حيث صارت خاضعةً لمظاهر برّاقة شلّت فكرها وطاقاتها عبر مراحل التاريخ . فالخروج على الشكل الخارجيّ الجاهز يجب أن يواكبه نزوع نفسيّ إلي التخلّي عن رغبات ماديّة قيّدتها واستعبدتها . والخروج على الذات والتخلّص من أدوات الإرث يكون برفض مظاهر العيش وإبطال الشغف بالمظاهر البرّاقة فتعلن الصباح بلسان الأنثى الرافضة أنّ الكنز الأكبر في حياة المرأة هو الرجل الرفيق :

لا العطر يدهشني ...

ولا الأزهار تدهشني

ولا القمر البعيد ...

ماذا سأفعل بالعقود ... وبالأساور ؟

ماذا سأفعل بالجواهر ؟

(...)

ماذا سأفعل في كنوز الأرض

يا كنزي الوحيد ؟

عندما تصير المرأة قادرةً على التخلّص من الاستعمار الداخليّ المزمن، تستطيع أن تتحرّر فكريًّا من سيطرة الشغف المادّيّ ، وتسعى للتسلّح بالمعرفة والثقافة ، فتولد المرأة التي نادت بها الشاعرة ونادى بوجودها جبران ، فهل يمكننا اعتبار الصباح النموذج الأنثويّ الجبرانيّ الذي أراده ورغب في ولادته؟

إنّها تحرّض الواقع الأنثويّ على هدم أشكال الظلم والاستبداد بسيرٍ دائم نحو الأمام ، وهذا ما طلبه جبران من المرأة المثال ، التي تتحدّى الصعاب وتسير نحو الأمام ؛ قال جبران مخاطبًا سلمى كرامة : «أمامنا الحياة وما فى الحياة من حرّية ، وما في الحرّية من غبطة ، فلماذا لا نخلع النير الثقيل عن عاتقينا ، ونكسر القيود السوثقة بأرجلنا ونسير حيث الراحة والطمأنينة ؟».

والصباح تحرّض على التحدّي والسير إلى الأمام بالطريقة عينها من أجل ولادة الأنثى الخالقة القادرة على تفعيل دور الحياة، والمتسلّحة بالثقافة المعرفيّة والرؤيا الشعريّة ، وتحقيق حريّتها وشموخها المعنويّ بسيرها إلى الأمام .

أتحدّاهم بشعريّ

وبنثري ...

وصراخي ...

وانفجارات دمائي ...

(...)

ما تعوّدت بأن أنظر يومًا للوراء

فلقد علّمني الشعر بأن أمشي

ورأسي في السماء .

وبالتجاوز والتخطّي ، تترسّخ الذات الأنثويّة في أصالتها ، لأنّه تجاوز مرتبط بالأصل وليس اعتباطًا ، إنّه مؤسّس على الجوهر الحقيقيّ ، والتأسيس السليم يبشّر ببنية اجتماعيّة سليمة وصحيحة ، بنية تأبى اللُّحمة مع مظاهر الغشّ ، والتخاذل ، وتحدّد هويّتها بالقوّة والصمود والتحدّي ، هذه الفاعليّة الكيانيّة الوجوديّة تحفّزها الصباح فى ذات الأنثى وتدعوها إلي التخلّي عن منطق وأفكار عصر مزيّف فقد أصالته فتدعوه «عصر التنك» ، شريطة أن تبقى المرأة متسلّحة برغبة فى الحرّية ، غير عابئة بالصعاب المؤقّتة؛ لأنّ المعركة ستحسم نتائجها فى النهاية لصالحها .

وأضحك من كلّ ما قيل عنّي
وأرفض أفكار عصر التنك
ومنطق عصر التنك
وأبقى أغنّي على قمّتى العالية
وأعرف أنّ الرعود ستمضي
وأنّ الزوابع تمضي
وأعرف أنّهم زائلون
وأنّى أنا الباقية

من عمق مأساة الأنثى تبرز الأنا الصباحية بشكل صارخ تحمل هاجس البحث عن الحرّية ، البحث المسكون بالقلق، والمتعدّد المستويات ، محوره الأفقيّ الأصالة العربيّة ، ومحوره العموديّ توق المرأة إلى حرّيّتها ، ونقطة الالتقاء القدرات الأنثويّة المتشكلّة من الأصالة والتوق ، وبها يتحفّز الكمون الذاتيّ، وتخرج الأنثى على حزنها وتقاليدها وشكلها المزدوج وتحدّد مستويات تلاقي محوري وجودها الماضي والمستقبل ولكنّها لا تجد إلاّ شكلاً واحدًا وتسمية واحدة لمتويات تواجدها كلّها ، فتمتطى جواد تمرّدها وتحقّق ذاتها وحرّيّتها بعيدًا عن خرافات متوارثة وتسمو الأنثى بإنسانيّتها فوق فرديّتها ، وتعتنق قضيّة الإنسان الكبرى من دون تمييز :

أنا الخليجيّة

التي نصفها سمكة

ونصفها امرأة

أنا الناي ... والربابة ... والقهوة المرة

أنا المُهرة الشاردة

التي تكتب بحوافرها نشيد الحرّية .

أنا الخنجر البحريّ الأزرق

الذي لن يستريح

حتي يقتل الخرافة

اختزلت «الأنا» الأنثويّة الصباحيّة الأنا النسائيّة الإنسانيّة الكونيّة ، ورسمت التمرّد علامة مميّزة فارقة ورفضت الانصياع للأعراف المغلوطة ، والبروتوكول الموضوع ، وخرجت بالمرأة على العادات والتقاليد والتبعيّة للأفكار السلفيّة ، هدفها التفاعل الحقيقيّ مع عذريّة الوجود الإنسانيّ بعيدًا عن التصنّع والأقنعة والعلاقات الكاذبة ، إنّها تسعى إلى تأصيل العلاقة الإنسانيّة التي تقرّب وتوحّد بين الأنا والآخر ، مؤكدةً على غجريّتها ، وعدم استعدادها للتعرّف إلى أقنعة المدن . وفق العلاقات العامّة .

إنّ سعاد الصبـاح لا تفرض على المجتمع الذكوريّ الاسـتئثار بفاعليّـة الحركة والتـغيير ، وترى أنّ إيجـابيّة النتائج تكون أكـثر تأصّلاً إذا اسـتطاع المجتـمع الذكوريّ أن يواكب باحـترام الحـركة الأنثويّة ، ويعملا معًا على تجسيـد الذات الكبرى ليتحرّرا معًا من مخلّفات الوحل والركام ؛ والواقع المأسـاويّ وإن كان قاسيًا على وضـعيّـة المرأة وتحرّكـاتهـا ، فهـو لا يأسـر الطاقات ويحـدّ من انفعالاتها .

وإذا أراد الرجل أن يؤدّى دوره الحقيقيّ فالخطوة الأولى تكون بخـروجه مع الأنثى على القـوانين التي أفـقدت الكلام حـيويّتـه ونضارته ومعناه ، فخسر الحبّ سماته الحقيقيّة وهويّته .

إنّ دعوتهـا للرجل من الوقوف إلى جانـبها فـى الانتفـاضة الإنسانيّة تسـبقها باعتـرافها له بالسيـادة لتحفّز فيـه بشكلٍ مبدأيّ الرغبة فى الحركة ، تخاطبه بـ «الأنا» الجماعيّة .

يا سيّدي :

قد يبس العشب على شفاهنا

وانكسر الكلام ...

فكيف نسترجع أيّام الهوى ؟

ونحن مدفونان ...

تحت الوحل والركام ...

ولكن هل استطاعت سعاد الشاعرة الإنسان أن تخرج الرجل العربيّ من مومياء الذاكرة التقليديّة ؟

هل استطاعت أن نحرّره من ذاته المنتهكة ؟

إنّ شكل الرجل العربيّ الحقيقيّ - في رأي الصباح - لم يزل حلمًا ترسمه الأنثي العربيّة وهج ولادة ، وهو مستوطن في عمق تطلّعاتها التحرريّة ، ولا تمكن رؤيته إلاّ بعين العين ، إنّه الحلقة التي تصل بين اللامرئيّ والواقع ، والفرق شاسع بين رؤيا مستقبليّة وأشكال الترهّل والقمع المجتمعيّ .

الرجل الحل إنسانٌ حقيقيّ مسكون بعذريّته ، يعشق المغامرة يسعى نحو اللامحدود، يؤمن بانطلاق المرأة ، يدفعها بقدراته وطاقاته نحو الأمام ولكنّ حضوره الملموس نوعٌ من مقامرة «على رجل لا يأتي . . . وحصان لا يربح) . بالرؤيا المستقبليّة حدّدت بعض سِمَات الرجل الاستثنائيّ الذي يتّصف بمناقب الرجولة الحقّة، وبالحلم استعاضت عن الواقع، واستضاءت به ، وامتشقته حجّةً وبرهانًا ، وأثبتت حقّها في رفض الشكل الذكوريّ المشوّه والمفرَّغ من إنسانيّته وفاعليّته ، والثورة على قوانينه وأحكامه وانتهاكاته .

فإذا كانت الأداة العاملة على خلق الأشياء غير صحيحة ، فهل تستطيع أن تخرج أشكالاً صحيحة وسليمة ؟

والرجل العاجز عن معرفة ذاته، وتحديد إحداثيّاته في الحياة والكون، هل يستطيع أن يضع قانونًا إنسانيًا سليمًا ؟

من التساؤل إلى الشكّ إلى اليقين انتقلت، وباليقين عبَّرت، وصرَّحت، وضعت الشروط، ورفضت صلاحيّة أنماط الواقع، وانتهاكاته، وأحكامه وقوانينه المغلوطة ، وأعلنت أنتماءها إلى أصالتها العربيّة ، هذه الأصالة التي أسّس أركانها الرسول الأعظم يوم أعطى المرأة حقّها في الحياة الكريمة .

رسمت الصباح الأبعاد النفسيّة والإنسانيّة للأنثى العربيّة بطموحها وتطلّعاتها وانفعالاتها وجوهرها وأصالتها ، وإبرزت أسباب ثورتها التي جاءت ردّة فعل ودفاعًا عن كرامتها وإبائها وكيانها الإنسانيّ ، وكانت الثورة هادفة إلى المساواة بين الرجل والمرأة لتتفاعل أحاسيسهما انعكاسًا وجوديًّا رقيقًا بعيدًا عن العناد والمواقف المتشنّجة ، والإسقاطات الخارجيّة فتخاطب الرجل قائلةً:

إنّ في قلبي جواداً عربيًّا
عاش طول العمر في الحبّ أبيًّا
فإذا عاندته ألفيّته
ثار كالمارد جبّاراً عتيًّا
(...)

ثمّ تنتقل من التصوير إلى التهديد وإبراز هويّتها الثائرة واللامبالية لأنّها تطمح إلى تحقيق نتائج تساوي بينهما ، المهمّ ، بالنسبة إليها ، أن تتحقّق المساواة :

لا تعاندني ... فأغدو حممًا
تهدم الدنيا عليك ... وعليّا
لا أبالي إن تحطّمت معي
ودفنّا قصّة الحبّ سويّا
فحنانيك ... وحاذر غضبتي
إنّ في قلبي جوادًا عربيًّا

ولمّا كانت طريق الثورة لا تعبَّد إلاّ بالنضال ، والنضال حركة تستشرف أشكال المستقبل ، وترسم حيثيّاته ، وتنبىء بما سيكون عليه إنسان الغد ، فلقد اتّخذت الصباح من النضال الثوريّ معبرًا إلى تحقيق الكيان الأنثويّ ذي الخاصّة المتميّزة ، وهذه الخاصّيّة لا يكشفها - في رأيها - إلاّ المدجّجات بفضيلة القتال الفكريّ ، والمتّجهات نحو المستقبل، المؤمنات بالحياة ، والحياة لابدّ أن تنتصر بعناصر مسكونة بالحركة والحقّ .

وبانتصار الحياة ، يتغيّر شكل العالم ، وينتشر السلام ، والحبّ هو القوّة التى تكسب الكون حياةً وخصبًا ، إنّ القوّة العجائبيّة التى تبعث الحياة حتّى فى الأموات .

بهـذه الرؤيا تُعلن الشـاعرة ولادة الأنثى المتـمنطقـة بفاعليّـة النضال سعيًا وراء تحقيق كيانها الذاتيّ :

يا سيّدي :
سوف أظلّ دائمًا أقاتل
من أجل أن تنتصر الحياة .
وتورق الأشجار في الغابات
ويدخل الحبّ إلى منازل الأموات
لا شيء غير الحبّ
يستطيع أن يحرّك الأموات

لقد حاولت الصـباح هدم الأشكال المهترئة بالكلمـة الأنثقويّة المغايرة للأعـراف ، فزلزلت ضميّة النظرة إلى الشِّعْر الأنثويّ ، وكشفت عن الشـكل الحقيقيّ الأصليّ لذات المرأة العـربيّة المغرّبة عن واقعها وعن ذاتها، ولكنّها - في رأيي - لم تكن لتستطيع أن تؤدّي رسالتها من دون دعم زوجـها القائم على الاحترام والحبّ والتقدير ، وقـد صرّحت بأنّ «الكثير من قصائدها وكـتاباتها هي من وحي أفكاره وتعليقاته» .

وكان دائمًـا يشاركـها في مجـالسه ويخصّص لهـا مكانًا في ديوانيّته ويسـتمع إلى آرائها وأفكارها بكلّ احتـرام وديموقراطيّة ، فكان خروجـها فاعـلاً، وفاعليّتـه أربكت المجتـمع الذكوريّ الذي

لاحقها محـاكمًا، محاسبًا ، ولكنّها لم تبـالِ بمحاكماته ولم تنكر دورها التحريضيّ الثوريّ الذي تريده كونيًّا شاملاً ، وتجيب هؤلاء بقولها :

يقولون :
إنّي كسرت رخامة قبري
وهذا صحيح .
وإنّي ذبحت خفافيش عصري
وهذا صحيح
وإنّي اقتلعت جذور النفاق بشِعْري
وحطَّمت عصر الصفيح
فإن جرَّحوني ...
فأجمل ما في الوجود غزالٌ جريح
وإن صلبوني ، فشكرًا لهم
فقد جعلوني بصفّ المسيح .

إنّ الهـدم الاجتـمـاعيّ الذي هزّ المفهـوم الخـاطيء لم يكن اعتبـاطيًّا ولا تخريبيًّـا ، إنّه هدم يهدف إلى بناء مجتـمع متكامل بقدرات عنصريه الذكر والأنثى ، هدم يلغي الحواجز المرتفعة فوق

مظاهر واهية من الاستسلام والكذب والنفاق والانقياد ، وفي هذا المجتمع الجديد يكون للمرأة دورها الريادي ، لتشارك في صنع القرار والتاريخ ، وتلغي الهوّة ما بين نظرة الرجل ونظرتها إلى الحياة ، وبإلغاء الهوّة تتمّ اللُّحمة ويقوّى التفعيل الديناميكيّ من أجل ولادة إنسان الغد .

ترى الشاعرة أنّ وجود الهوّة ناتج عن محاولة ترويض الرجل للمرأة، ولكنّ هذا الترويض مستحيل بسبب التنافر النبوغيّ والكيفيّ بينهما، وكانت قصيدتها «درس خصوصيّ» تعبيرًا صريحًا عن هذه الهوّة ، فالمرأة تتمسّك بالأصل ، والرجل يستغلّ الأصل بحسب رغباته وعلى الأصل تُبنى الحضارات ، وبالاستغلال يترسّخ الطغيان .

فرقٌ كبير بيننا يا سيّدي

فأنا محافظة .. وأنت جسور

(..)

فرقٌ كبير بيننا يا سيّدي

فأنا الحضارة

والطّغاة ذكور .

إذًا ، كيف تنادي السعادة بمشاتركة وجدانيّة إنسانيّة إذا كان الخلاف بين الرجل والمرأة قد فرّق في النوع والكَيْف ؟

إنّ هوّة التفاوت - في رأي الصباح - لا تُردم إلاّ بوجود الحبّ الحقيقيّ ، المتحرّر من التبعيّة والانقياد . وهذا الحبّ يولد من رفض العنصر الأنثويّ الصالح المتزامن مع رفض العنصر الذكوريّ ، فيلبّي الرجل نداء الإنسان في داخله ، ويتخلّص من قيود الماضي ، ومن الأعراف الاجتماعيّة البالية ، ويؤمن بالأنثي رفيقة درب ، ويعطيها حقّها في الحياة ، فيلغي وصايته عليها ، وينزع عنها طوق التبعيّة الفكريّة والنفسيّة ليكون حبيبًا لا سجّانًا .

وببلوغ الرجل مرحلة من المعرفة تؤهّله ليكون عنصرًا جديرًا بالحياة تنضج رؤياه الإنسانيّة ، ويتخلّص من موروثه العاطفيّ الذي كان يرى في الأنثى جسدًا ماديًّا ، ليرتقي ، برؤيته إلى الإيمان بالمرأة كفكر ومشاعر وعواطف .

ولذلك تدعو سعاد الصباح الرجل إلى أن يتسلّح بمعرفة حقيقيّة لمشاعر المرأة وعواطفها الصادقة ، ليكون قادرًا على رفض الفكرالسلفيّ الماديّ الجامد وتغيير أساليب التعاطي مع العنصر الأنثويّ ، ليرتقي معها وبها من حدود السلفيّة المقيّدة إلى فضاء معرفيّ لا حدود له ، فضاء منتعش بالحبّ فتخاطب ، الرجل بصراحة وجرأة قائلة :

لو كنت تعرف كم أحبّك

لم تعاملني ككرسيّ قديم

أو كنصٍّ من تراث الأقدمين
لو كنت تعرف كم أحبّك
ما قمعت ...
ولا بطشت
ولا لجأت لحدّ سيفك
مثل كل الحاكمين .

إنّ الصبّاح تدعو الرجل إلى رفض الواقع وقبول الآخر ، وبخاصّتي الرفض والقبول ومساعدة الرجل تستطيع المرأة - في رأيها - أن تُعلن عن عواطفها ، وتفصح عن مشاعرها النبيلة ، فإذا كان المجتمع يعتبر كلام الأنثي على الحبّ خروجًا على المألوف والمقبول ، فلتبارك وجودها بنعمة الرفض ، وعلى الرجل الصادق مع نفسه ، والمنسجم مع مبادئه ألاّ يقمع صوت الحبّ الأنثويّ ؛ لأنّ فيه نعمة من التحدّي والرفض .

والكلام على الحبّ تنقله الصباح شعرًا عن وعي كامل لحقّها في التعبير عن إنسانيّتها ، وتذكر رأيها بجرأة وصدق في مقدّمة كتابها «قصائد حبّ» قائلةً : «هذه قصائد أحاول بها أن أقيم ديمقراطيّة عاطفيّة يتساوى فيها الرجل والمرأة في حريّة البوح (. . .) إنّ لدى المرأة كلامًا عاطفيًّا مخزونًا منذ آلاف السنين تريد أن تقوله» .

جعلت الصباح من الحبّ عمليّة ارتقاء وتحرر ، ورأت أنّ الحبّ الفضائيّ الكونيّ الفاعل ناتج عن حركتي الارتقاء نحو اللاّمحدود ، والرغبة في الحصول على المعرفة .

وبحركتي الارتقاء والرغبة تتحرّر المرأة من قيودها وتكشف المحجوب المستتر ، وتفصح بفعل الكتابة عمّا احتجب منذ مئات السنين ، فيأتي الحدث غريبًا عن الحياة العربيّة . إنّه - في عرف المجتمع - حدثٌ إجراميّ ارتكبته المرأة وبالحدث تولد الحركة إيجابًا وسلبًا ، وتتفاعل عناصر الحياة التي أيقظتها الشاعرة بهدم حصون التقاليد العربيّة وشقّ الطريق أمام حرّيّة القول والتعبير ، وإضاءة الوجود الأنثويّ بالحركة الصادعة بحثًا عن اللاّمحدود واللاّملموس . ويتمّ القطاف المعنويّ بحركتين متكافئتين : البحث التصاعديّ عن الضوء ، والبحث التصاعديّ عن المعرفة ، وتعلن أنثى الصباح تفرّدها واستباقها ، ويتوحّد فعل القصيدة والقمر ، والجريمة خلقًا وابتكارًا :

أصعد إلى سقف القمرْ
لأقطف لك قصيدة
وأصعد إلى سقف القصيدة
لأقطف لك قمرًا
أصعد إلى فضاءات

لم تصعد إليها إمرأة قبلي
وأرتكب كلامًا عن الحبّ
لم ترتكبه سيّدة عربيّة قبلي
ولا أظن أنّها سترتكبه بعدي

إنّ دعوة الصباح إلي الإفصـاح عن مشاعر الحبّ هي نوع من الثورة وقلب المفاهيم ، وخرق هـالة القداسة ، فهي رفض وهدم وخروج وثورة .

وحدّ ثوريّ كهذا له خصائص ومقوّمات تمتلك خاصيّة التغيير والتحديث ، حبٌّ فاعل ، كاشف ، مـحرّض ، حقيقيّ لا يؤمن بالطقس والشكل ، إنّه نابعٌ من الذات الإنسـانيّة بكلّ شفـافيّتـها وطهرها وعذريّتها ، إنّه شموليّ أكبر من الزمان والمكان والكلام.

عرّفت الصباح الحبّ الذي تريده بقوله :

حبٌّ يثور على الطقوس المسرحيّة في الكلامْ
حبٌّ يثور على الأصول ..
على الجذور ...
على النظام ...
حبٌّ يحاول أن يغيّر كلّ شيء

في قواميس الغرام .

والحبُّ الثوريّ ، حبٌّ يعرّي ، وينـقّي ، ويفصح عن جوهر المرأة من دون زيف ولا غشّ ، مـن دون طلاء أو أصـبـاغ ، إنّه يتمرّد على قشرته ، وينبثق عنه كونٌ جديد ، ولقد عرّفته الشاعرة بقولها :

حبّي شتائيّ
ولا أشعر أنّي امرأة
إذا انتهى الشتاء
حبّي جنونيّ
ولا أشعر أنّي امرأة
إذا لم أحطّم قشرة الأشياء .

إنّ الثورة الإنسـانيّة في شعر الصـباح ليست هدمًـا للمألوف فحـسـب ، وإنّما حاجة تفـرضها الحيـاة السائرة إلى الأمام ، من أجل بناء كـيان إنسانيّ صـحيح يراعي الجـانب العقليّ والنـفسيّ لعنصريها «الرجل والمرأة» ، فهخما جـسدٌ واحد في كيان الحاضر والمسـتقـبل ، وعليهـما أن يتـبـادلا المعاملة الحَـسَنة، فتـتفـاعل الأحاسيس انعكـاسًا وجوديًا رفيقًـا ومستقرًا تـكون المرأة فيه ذات حضـور إنسانيٍّ لا متناهٍ ، تتخـطّى معه الماضي والحاضـر وتثبت

دورها وفاعليّتها في حركيّة مستمرّة ، فالعنف لا يُولّد إلاّ العنف، والإلفة لن تولّد إلاّ الإلفة ، والمحبّة الحقيقيّة تتجسّد مشيئة الله .

إنّ هدم الصباح هدم يسعى إلى التشييد والبناء وتأسيس مقوّمات المجتمع الإنساني الصحيح والسليم .

البِنَاء :

لم تهدم الصباح المؤسّسة الاجتماعيّة العربيّة ، ولم تدعُ إلى التخريب والفوضى ، وإنّما كان هدمها أشبه بالبرق الذي يسبق الرعد والأمطار ، فكانت غايتها هدم العلاقات القديمة الهشّة المهترئة ، والنموذج المقدّس المصنوع من غبار الماضي ، من أجل خلق نمط جديد من العلاقات .

كان هدمها أشبه بهزّة في معتقداتنا الراكدة ، ليتساقط منها ما ليس جديرًا بالحياة ، ويستمرّ بنا ومعنا ما كان بذارًا صالحًا للصيرورة والتغيير والتجديد . تجسّد رصدها لواقع المرأة العربيّة تصويرًا حيًّا يعنى بالتفاصيل والجزئيّات الشكليّة والنفسيّة ، وبرزت الصورة البشعة التي تراكمت تشوّهاتها من تكرار الموروث التاريخيّ ؛ والتغيير لا يقوم من الفراغ أو علي الفراغ ، وإنّما يحتاج إلى قيادتّين يمهّدون الطريق أمام الأجيال .

والعمل القياديّ في رأي الشاعرة ليس حكراً على جنسٍ واحد ، وإنما يشترك فيه الذكر والأنثى .

فالأنثى الرياديّة ، قياديّة، منعتقة من المادّة ، ومعتنقة الجوهر بعطائها وتضحياتها ، تعي تمامًا حقيقة وجودها ، وتؤدّي دورها الفعليّ من غير خوف ، متحرّرة ، واثقةً بنفسها ، لا تقعدها الإشاعات والكلام الفارغ عن المضيّ إلى هدفها ، فتلبس رفضها للواقع ، بقبوله وتغذيته بعنصري الحركة والحريّة ، فتأكل السلبيّة ذاتها ويتحوّل السلب إلى إيجاب :

لا تضايقني الإشاعاتُ

التي يروونها عنك وعنّي

بل على العكسْ

إنّني أفتح لها نوافذ بيتي

وأقدّم لها القمح على راحتي

وأتركها تلعب في خزانة ثيابي

إنّ إشاعات الحبّ في بلدي

عصافير جميلة

وأنا أرفض قتل العصافير

تدعو الصباح المجموعات النسائيّة إلي الإفصاح عن المشاعر والأحاسيس والحبّ في رأيها حريّة وليس فيه عار ، إنّه «شعلة سماويّة»، وضعها الله فى قلوب ولدت حرّة . ولقد قال الخليفة

عمر بن الخطاب رضي الله عنه : «مت استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمّهاتهم أحرارًا» ، فالحرّيّة الشخصيّة أو الفكريّة أو العاطفيّة هبة من الخالق ، ولا يجوز تجريد الإنسان من حقٍّ إلهي .

ولما كان الحبّ حرّيّة ، والمرأة إنسانًا كامل الحقوق كما نصّ الله في كتابه العزيز :

﴿... لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبْنَ﴾ .

إذًا فيجب أن تكون المرأة حرّة في التعبير عن عواطفها ولا يحقّ للرجل أن يحرّمها من هذا الحقّ ، وليس من الطبيعيّ أن تحلّل المجتمعات البشريّة للرجل حرّيّة البوح والتعبير وتحرم المرأة .

هذا الواقع السكونيّ تحرّكه الصباح وتوقظه بالسؤال ، وبه تكون يقظه تدفع نحو التنقيب والكشف وبالتالي الحصول على معرفة حقيقيّة تستضيء بها الجوانب المظلمة من حياة المرأة .

وأسأل نفسي :

لماذا يكون غناء الذكور حلالاً

ويصبح صوت النساء رذيلة ؟

لم تتوقّف الأدبية عند حدود السؤال التحريضيّ ، بل عمدت إلى الكشف أيضًا بالتجربة والاختبار ، فالمجتمع العربيّ الذي

حرّف الأصل وربط كل مظهر خاطىء بالسنّة والشريعة ليبرّر أخطاءه وتهالكه ، يسيطر على فكر المرأة بالأمثال المحذّرة لتنشأ في عبوديّة السهل الموروث ، بعيداً عن التساؤل والبحث والتطلّع وتقنع بقبول كلّ سلفيّ من عادات الحياة متغاضيةً عن حريّة وجود دنيويّ طمعًا في نعيم الجنّة وحريّتها وتتخدّر مفاهيمها تحت تراكمات من المعرفة الخاطئة .

تقدّم الصباح للمرأة العربيّة نموادّ ونقاطًا مقدّسة لا تقبل النقاش أو الحوار «الكتابة إثمٌ عظيم - الصلاة أم الحروف حرام - مداد القصائد سمّ. . .» ، وتنقل شكل السلطة القمعيّة الرافضة للاختبار باستخدام أسلوب النهي «لا تكتبي - لا تقربي - إيّاك أن تشربي» لكأنّ القراءة رجسٌ من عمل الشيطان ، أو محرّمات مكسرة «لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى».

لم ترفض الصباح تكرار هذه المشاهد أمام جمهور النساء، ولكنّها أثبتت بخوض التجربة أنّ الافتراضات لا صحّة لها، ولا أساس دينيًا لها، فلقد كتبت ولم تتسمّم ولم يغضب الله منها ولا استاء النبيّ :

وها أنذا

قد شربت كثيراً

فلم اتسمّم بحبر الدواة على مكتبي

وها أنذا
قد كتبت كثيراً
وأضرمت في كلّ نجم حريقًا كبيراً
فما غضب الله يومًا عليّ
ولا استاء منّي النبيّ

وبنجاح الاختبار العلميّ تدعو الأنثى إلى تفعيل دورها الثقافيّ والتقربّ من الرجل لخلق علاقة إنسانيّة لها حضور إيجابيّ قابل للتبدّل والتطوّر من خلال الفاعليّة الذاتيّة للإنسان فيهما ، هذه الفاعليّة التي تصنع الروابط ، وتهدم الهوّة ، وتحوّل الصراع فى نفس المرأة إلى طمأنينة واستقرار ، وباطمئنانها إلى قيمتها كعنصر فاعل له دور مهمّ في مسيرة الحياة والكون ، تتغيّر نظرتها في تكوينها ، وتتصرّف من منطلق الحقوق الطبيعيّة والواجبات الضروريّة، وتتخلّص من أخطاء الكبت وباطنيّة الفكر المغلوط ، وتنتصر على عواطفها التى استعبدت فكر المرأة أجيالاً طويلة .

بهذه الفرضيّة تستطيع المرأة أن تبوح للرجل بأحاسيسها ومشاعرها، ولكن شريطة ألاّ تتخلى عن كرامتها وكبريائها ؛ لأنّهما أغلى ثروة تملكها المرأة ، وهكذا نجد أنّ الشاعرة لم تطالب بحريّة المرأة العاطفيّة المنفلتة من كلّ القيود ، إنّها تشترط على

المرأة العظيمة أن تحترم حـرّيّة العواطف التى وهبها الله لها ، وفى الوقت عينـه تكبّلها بعظمـة الكبر والكرامة ، إنّهـا معـادلة تجمع النقيضين وقابلة للحلّ :

فأمانيّ ، برغم الحبّ أحرارٌ وأسرى
هنّ أحرارٌ ، لأنّ الله صاغ القلب حرّا
هنّ أسرى كبريائي ، وهي بي أولى وأحرى
كبريائي هي ، من كلّ المنى أعظم قدراً
فإذا ما صنتها لي ، بات لي حبّك ذخراً
أمانيّ حرّة + كبرياء موجّهة ⟸ الحبّ الحقيقيّ

وباعتماد هذه المعادلة الصحيحة، تستطيع المرأة القيادّة أن تنقض بالبرهان العمليّ والعلميّ كلّ النظريّات الخاطئة التي فرضت عليها، وتتـحرّر من هيـمنتهـا ، فتـتـخلّص من مقـولة إنّ الكلام ميـزة الرجال، والتـغزّل من اختـصاصهم ، والكتـابة بحرٌ عمـيق المياه مخـيف ، وتتحـرّر من أفعال الأمـر والنهي وتثبت قـدرتها على الكتابة كالرجال :

وها أنذا قد سبحت كثيراً
وقاومت كلّ البحار
ولم أغرق

والمرأة الحقيقيّة تتقن تحوّلات الكيمياء ، وتمتهن لعبة الصبر ، تُفاعل الأنا الإنسانيّة في ذاتها مع جوهر الرجل الخالق ، وباتّحادهما يتجسّد الإنسان الحقيقي الجوهريّ ، وتتلف الشوائب، فالصبر - في رأي الصباح - فعل تحويل وخلق، يثبت القدرات الإيجابيّة إيمانًا بقوله تعالي :

﴿ وَبَشِّرِ الصَّبِرِينَ ﴾

والمرأة الخالقة تواجه ضربات الرجل المعنويّة، وتجبُّره ، وتسلُّطه على حياتها بالصبر ، وقوّة الإرادة ، وتجعل من صبرها علمًا وفنًّا ، لتوقظ الإنسان الحقيقيّ المستتر وراء تصرّفات الرجل المستبدّ وتعيد ولادته من جديد.

يا هولاكو هذا العصر :

(...)

أنت تمارس فن القتل

وأنا أتقن فن الصبر

ومن الملاحظ في هذه القصيدة «رجل تحت الصفر» أنّ الشاعرة تصوّر فيها الرجل الظالم «فرعون» الذى يصل به الغرور إلى حدّ ادّعاء الألوهيّة وتطلق عليه إسم أحد رموز الوحشيّة فتقول له : «يا هولاكو الأول يا هولاكو الثانى يا هولاكو التاسع والتسعين» ، وهو جزّار بطّاش ، لا يعرف العلم ولا الحضارة ولا

للحبّ معنىً ، وهو يبطش أوّل ما يبطش بأبناء جنسه من الذكور، يتّصف بنوع من الضميّة والجماد «أنت تحبّ ثبات البرّ»، فتناولت رجلاً بعينه أو نوعًا معيّنًا من الرجال مستعملةً صفة تخصيصيّة تميّزه عن المجموعة ناعتةً إياه بـ «الرجل السوداويّ» وهي امرأة فوق العادة تلبس التحدّي درعًا .

وهذه الطاقة التحويليّة المفعّلة بخاصيّة التحدّي ، هى قبل كلّ شيء طاقة معرفيّة ، ثقافيّة ، ووليدة الموهبة والقوّة ، والرؤيا ، إنّها طاقة تهدف إلى ولادة الأعمال العظيمة . والأعمال لا تكون عظيمة إلاّ بقدر ما تعبّر عن الذات الكونيّة وتحمل انبثاقات وتطلّعات وأحلام الإنسان للمنطلق نحو ذاته الحرّة .

وبالتالى فإنّ أيّ عمل تسعى الأنثى إلى خلق أشكاله الصحيحة لن يكون عظيمًا إلاّ إذا اختزل في معانيه الرغبات العليا التوّاقة إلى الانفلات من محدوديّة الانتماء نحو انتماء كونيّ شامل، لتتّحد قضيّة الأنا الصغرى بالقضيّة الإنسانيّة الكبرى ، وترتقي الأنثى بفعل التحدّي الذاتيّ للصعوبات من المحدوديّة إلى حريّة كونيّة مطلقة حيث تتفجّر الحياة حبًّا ، وتعاونًا ، وتعاليًا على التفرقة والتمايز البشريّ ، وهذا العمل العظيم هو محتوى رسالة التحدّي والريادة في فكر السعاد لتكون المرأة الخالقة قادرة علي إثبات ذاتها .

أتحدّاهم بشعري

وبشري

وصراخي

وانفجارات دمائي

أتحدّى ألف فرعون على الأرض

وأنضمّ لحزب الفقراء .

وعندما تصير قادرةً على إثبات ذاتها تحاول نشر رسالتها وتعميمها على المجتمع الذكوريّ بشكلٍ علميّ وذكيّ ، فتحقّق رسالتها بالسعي إلى التفهّم والتأثير في الرجل ، لتزرع في عواطفه وأفكاره ، عواطفها وأفكارها فيصيرا معًا الجسد المتوهّج بنور الألوهة :

يا الذي لا يشبه رجلاً

ولا يشبهه رجل

مرآتي أنت

فما أجمل وجهي .

تترك سعاد الصباح للمرأة حريّتها في استخدام إمكانيّاتها المفترضة ، وتقدّم لها مفتاحًا يخرجها من قمقم الاستسلام ، لتكتسب بعض صفات المرأة الخالقة ، وتخرج كالمارد من تحت الرماد ، وتثور على المتشدّقين باسم الحريّة ، وتقلع جسور النفاق

والكذب من العلاقات الاجتماعيّة ، وتتخلّص من الشكل الجاهز للمرأة في مخيّلة الإنسان العربيّ ، ومن وصايا القبيلة ، ومن سلطة الموروث ، وتحطّم العصر المتجمّد الذي هدّد التاريخ والجغرافيا لتبتكر مع الرجل تاريخًا مغايرًا ومختلفًا لتحرّكه العلاقة الحميمة المشتركة بين المرأة الخالقة والرجل الخالق ، وتتكوّن النواة الإنسانيّة الخارجة على كلّ مفهوم قديم ترهّل بتكرار مشاهدة واستهلاك أشكاله . وتقدّم نفسا مثالاً للتحدّي .

أنا الخليجيّة

الهاربة من كتاب ألف ليلة

ووصايا القبيلة

وسلطة الموتى

والتي تتحدّى حين تكون معك

حركة التاريخ وجاذبيّة الأرض .

المرأة الخاتلقة - في رأي الصباح - لا تكتفي بالخروة على الموروث المستهلك والبالي ، بل هي الأنثى القادرة على رفض الخضوع لأشكال العصر المغرية والخاطئة ، إنّها الأنثى التى تأنف التحلّي بأثواب الحضارة المزيّفة الجديدة ، هذه الحضارة التى اكتفت بالقشور وغيّبت الجوهر .

الأنثى الحقيقيّة لا تغريها القشور ولا تهتمّ بالبالونات المنفوخة ولا المفرقعات المستحدثة ، بل تبقى متمسكة بأصالتها ، وقناعاتها وإيمانها غير مكترثةً بما تتناقله الدعاية الغربيّة عن تفسّح في علاقات الرجل والمرأة ، وتحوّلها إلى روابط جسديّة ، مغلّفةً التفكّك بمظاهر من الإغراءات ظاهرها حريّة وتمرُّد ، وباطنها انقياد واستبعاد .

إنّ تأثيرات الحياة الغربيّة في بلادنا ، والتي سبّبها وجود النفط ، غريبة عن طبيعة أرضنا وحياتنا وأصالتنا ومعتقداتنا وتراثنا الأصيل ، وبالتالي تدعو الصباح إلى الاحتفاظ بعلاقات إنسانيّة بين الرجل والمرأة ، علاقات مؤسّسة على التفاهم والصداقة ، والتشاور ، والتعاون بعيدًا عن مؤثّرات الإضاءة الخارجيّة .

يا صديقي
إنّ عصر النفط ما لوّثني
لا ولا زعزع بالله اقتناعي
(...)
كلّ ما حولي
فقّاعات من الصابون والقشّ
فكن أنت شراعي .

وهذه الأنثى القياديّة المتمسكة بأصالتها والمتألقة بريادتها الفكريّة عليها مسؤوليّة تغيير أفكار الرجل الشرقيّ وعاداته غير الصالحة عن طريق الحوار بأسلوب علميّ منطقيّ تستطيع معه أن تقنع الرجل برفض موروثات حوّلته إلى بطلٍ وهميٍّ على مسرح الحياة ، فيبطل شغفه بشكل المرأة الخارجيّ ويهتم بعقلها وتكفيرها، ولكي تستطيع إقناعه عليها أن تكون جريئة في طرح أفكارها والتعبير عن حاجاتها النفسيّة ، ورغبتها في قيام العلاقة الحقيقيّة على الصداقة والتفاهم ، والتقدير الثقافيّ ، وعليها أيضًا أن تشرح للشريك الموضوعات التي تثير اهتماماتها ، ليتجاوز الرجل المفاهيم التي يحملها شكلاً ثابتًا من دون أن يعلم حساسيّة المرأة الخالقة من تطبيقها .

إنّ المرأة الاستثنائيّة تحتاج إلى الصديق الذي يعطيها الأمن والسلام ، ويشاركها في التفكير والحوار ، بعيدًا عن المادة القاتلة، ويحترم خصوصيّتها وحاجاتها الروحيّة، فالعشق لا يهمّها ، ولا الكلام المفرَّغ من المعنى ، ولا القصور ، أو الهدايا القيّمة ، ولا الاهتمامات بالشكل .

وعندما تستطيع المرأة أن تفصح للرجل عن حاجاتها النفسيّة والروحيّة وتحثّه على التخلّي عن بطولة وهميّة يولد الرجل الصديق :

كن صديقي

ليس في الأمر انتقاص للرجولة
غير أنّ الرجل الشرقيّ لا يرضى بدور
غير أدوار البطولة
(...)
فلماذا تهمل البعد الثقافيّ ...
وتعنى بتفاصيل الثياب
(...)
كن صديقي فأنا محتاجة جداً لميناء سلام .

المرأة الخالقة تتمتّع بشخصيّة ذكيّة وصريحة ، وصادقة في التعبير عن نفسها ، فلاتخفي حبّها ، إذا كان شريفًا لأنّه نور الله في قلوب المحبّين وإعلانه حقّ مشروع ، وفي إعلانه خروج على التقليد ، ومن العادة ، من أجل افتتاح مسارٍ جديد ، تخلق فيه الأنثى نموذج تعبير متميّزًا ، شكّلته برغبتها وإرادتها وكبريائها وخفرها ، وظلّت محتفظة بسرّ إبداعها لهذا النموذج ، وبقدر ما تصون المرأة خصوصيّتها تبقى سرًّا ، وحيث يكون السرّ توجد الرغبة فى الكشف :

أنا من حبّك أخفي عنك آلاف الفكر
في ثنايا كبرياءٍ ، وحياءٍ ، وخفر ...

تدعو الصباح النساء إلى خوض معركة الدفاع عن النفس حتى تنتصر الحياة بانتصار المرأة على قيودها ، فتكسب الوجود جمالاً ، وحياةً ، وخصبًا ، ويصير إلى حركة تحيي النفوس الظمأى ، فتجعل من معركتها تجربةً يؤسّس عليها المستقبل ، ولذلك يجب أن تتميّز بالحرّيّة والعبوديّة ، الحرّيّة الفكريّة والعبوديّة لكبريائها فتحرِّم جسدها عن علاقة إذلال غير مبنيّة على التفاهم ، وتجعل من العقل حاكمًا على عواطفها ، وتسيطر على المشاعر والأحاسيس غير الناضجة ، وتتحلّى باحترامها لنفسها ، جاعلةً من الجسد أرضًا حرامًا ، والعقل ثلاّجة الجليد ، كي لا تنتقل من عبوديّة التقاليد إلى عبوديّة العواطف ، وهنا ترسم الصباح صورة معبّرة عن الصراع في نفوس النساء القياديّات وخوفهنّ من المجهول غير المحدّد الرؤي؛ فجسّدت الصراع في نفس المرأة بين عاملين عامل الرغبة في الحبّ، وعامل الخوف .

تتصارع في أعماقي رغبتان
رغبتي في أن أكون حبيبتك
وخوفي من أن أصبح سجينتك

إنّ الأنثى القياديّة ، لا تسيطر عليها العواطف ، فهى متحرّرة، ورافضة لعواطفها تستمد من فطرتها قوّة ، وطاقات حقيقيّة ، فتكون الأنوثة عندها رفضًا للانقياد والانصياع وتأجّجًا

للعـواطف ، وتمرّدًا على المألوف ، وحـرفًا لقـشور الأعـراف ، لتحتفظ بالجوهر ، وتحرص عليه .

إنّها بحر يـكتنفه السرّ والغموض ، بـحرٌ لا قرار له ، يموج بالصخب والأسرار ، وشواطئـه لا تعرف السكينة والهدوء ، إنّها حركة دائمة ، حركة واعدة ، مبشّرة ، فبعد البروق والرعود الخير والخصب ، فعواطفها عصف يقضقض السكون ويحطّم كلّ ما هو بالٍ :

هذا أنا ... من يوم أن خلِقت

أنوثتي ساحقة ...

عواطفي حارقة

شواطئي تضربها البروق والرعود ...

والمرأة الرياديّة ثورة بحـدّ ذاتهـا تدافع عن قضـيّـتهـا بوضع الفروض وإثبات صحتها أو نقضها إذا لم تكن هذه الفروض متّفقةً مع الحقائق الحـياتيّة والإنسانيـة . فتجسّـد كونًا مطلقًا ، مفـعمًا بالحركة والحيويّة ، ومن هذا المنطلق وعبـره تعلن موقفها ، وتحدّد إحداثيّات قـضيّتها التي تهدف إلى تحـرير المرأة والثأر لها من كلّ العـصور التى أفـتت بظلم الصابرات والحـائرات والقـاصرات ، وهتك حرمة العذارى .

تختزل الشـاعرة فى صوت المرأة القياديّة أصوات النسـاء عبر

التاريخ والعصور ، حيث عوملت الأنثى كالحيوانات بيعًا وشراءً ، واستغلالاً ، فتبطل بصوتها المظاهر الإجراميّة ، وتلغي الأعراف الإنتهاكيّة ، وتكون الأنثي الحقيقيّة .

سأصرخ :

باسم العذارى اللواتى

تزوجتهنّ ...

وطلّقتهنّ ...

كما تشترى وتباع الخيول !!

إنّ الأنثى فى شعر الصباح ، خالقة ، مواطن كوني ، فاعل ومؤثّر في العالم كلّه ، وهي الفعل والفاعل في آن تستخدم ذكاءها وثقافتها فتخلق في نفس الرجل شعورًا بالحاجة إليها ، ويكون استمرارها إلى جانبه قضيّة يحارب من أجلها ، بعدما غيّرت من عاداته وتقاليده وأفكاره السلفيّة، وتكون المثال الحيّ الخالد للأنثى الرياديّة التي تبعث الحياة بالموت ، تقدّم نفسها فداءً لقضيّة تسعى إلى تحقيقها ، وتكون نموذجًا آخر عن شهر زاد التي خلقت شهريار من جديد ، عندما نشرت فى أفق حياته الحاجة الزوجيّة لوجودها ، وغيّرت من المفهوم الخاطىء عن المرأة ، فهى ليست جسدًا ، إنّما الأداة الفاعلة في حياة الرجل والكمون الحقيقيّ في دفعه نحو ذاته الإنسانيّة الحقيقيّة :

وكأنّي شهر زاد الحبّ عادت في الخفاء
لتردّ الملل القاتل عن سيّدها طول المساء

المرأة الخالقة في رأي - السعادة - تسير إلى الأمام ، ولاتنظر إلى الماضي إلاّ لأخذ العظَة ، تتحدّى الصعاب ماضيةً نحو الهدف متجاهلةً أهل الحكم والشريعة ، والتجّار ، وسارقي الفكر . وتتسلّح بأصالتها وحدسها ، وحذرها لتبقى العين الساهرة على تحقيق قضيّتها والوصول إلى أهدافها العظيمة ، فتحول الأنثى بقدراتها الكرة الأرضيّة إلى كتلة موحدة بالفكر ، فالذي لم يتحقّق بالقوّة المادّيّة يحقّقه العمل الفكريّ الدؤوب ؛ لأنّ البقاء والخلود والحياة الحقيقيّة للكلمة .

والأنثى هي الأكثر قدرةً على ولادة الكلمة المؤثّرة الفاعلة ؛ إنّ الجواد الأصيل مهما وضعوا اللجام في فمه فصهيله لن يتوقف، والمرأة الأصيلة القادرة تبقي في حالة تهيّؤ واستعداد لمجابهة أيّ لجم للحركة أو الفكر، فإن سكت الصوت منها تسجّل الكلمة ، والكلمة هي الأساس :

سوف أبقى أصهل
مثل مهرة فوق أوراقي ...
حتى أقضم الكرة الأرضيّة بأسناني

إنّ مهمّة المرأة الرياديّة عظيمة جداً ، إنّها مطالبة بهدم

الحصول الماديّة والنفسيّة والفكريّة ، وتحطيم القيود ، وتجاوز الواقع ، وتحرّر الفكر من سلفيّته، لتلغي التمييز العنصريّ والجنسيّ؛ لأنّ لحمة الكون المعنويّة ، وتشكيل كيان الإنتسان الموحّد بالإلفة والمساواة والتسامح والمحبّة ، لن يكونا إلاّ بالتعالي على التفريق بين العنصر ونوعه .

وترى الأديبة أنّ وجود التفرقة بين الأجناس البشريّة ، وخاصّة بين الرجل والمرأة ، أشبه بجدارٍ خرافيّ بين وجهين لحقيقة واحدة ، وبين تشابك العناصر واتّحادها وبين السبب والمسبّب ، وتتساءل بأسلوب استنكاريّ إذا كان من الممكن إقامة هذا الجدار الخرافيّ بين الحقول وبين الشجر ، أو بين الغيوم والمطر.

إنّه طرحٌ فلسفيّ علميّ تتسلّح به أنثى الصباح لتعلن تمرّدها على التفريق بين الأنثى وبين الذكر ، وهذا الطرح تخلص نتائجه إلى إثبات دورها الثقافيّ والفكريّ في ميادين الحياة كلّها ، متّخذة من الطبيعة المعدل والقدوة .

ومن قال : للشعر جنس ؟

وللنثر جنس

وللفكر جنس

ومن قال إن الطبيعة

ترفض صوت الطيور الجميلة ؟!

بهذه الرؤية تسعى إلى تأسيس مجتمع عنصراه المرأة والرجل، تحطّم فيه العوائق في لحظة المكاشفة والتغيير والدعوة شريطة ألاّ تتراجع المرأة عن قرار المسير المتميّز بالإباء والكرامة والكبرياء لأن التغاضي عن المفهوم الجوهريّ لمساواة المرأة والرجل يفقد المعادلة صحتها . وتأتي النتائج غير سليمة ، ولذلك كانت المرأة مطالبة بشكل دائم بإثبات شرعية نضالها بنفي الوجود السلبيّ، وبنفي النفي تولد فاعليّة الإيجاب وبها يتجسد حق الحياة:

لا ... لن نذلّ ولن نهون ، ولن نفرّط فى الإباء

فقد انتهى عصر الحريم وجاء عصر الكبرياء ...

وجلالنا حقّ الحياة فكلنا فيه سواء ...

إنّ المرأة الخالقة المجسّدة في مسيرة سعاد الصباح تحيا في الحياة لا في إرثيّة متكرّرة ، تعشق الحركة ، وبفعلها اللانهائيّ تمثّل السعة والشموليّة والانتماء إلى إنسانيّة مطلقة ، فلا تقابل الحقد بالحقد ، والظلم بالظلم ؛ لأنّ قضيّتها هي الإنسان ذكرًا وأنثى ، فتجّسد فكرتها على الأرض بالعمل لتنشىء مع الرجل كونًا إنسانيًا حقيقيًا ، فانتماؤها إلى الرجل وانتماء الرجل إليها ضرورة حتميّة ، فلا عاصمة من دون وطن ، والوطن يحتاج إلى

مركز وعاصمة ، فهى لا تلغي دور الرجل ، فالعاصمة هي مركز الحركة والتجاذبات ، والمرأة هي التي تخلق الرجل العظيم وتدفع به إلى الحركة والنشاط ، وفي وصوله فعل للأنثى ، وفي احتوائها له الطمأنينة والهدوء . فالعلاقة حتميّة متكافئة ، حميمية، باعثةٌ ، فلا أنثى خالقة من دون رجل خالق ، ولا مطر من دون غيوم ، إنّ هذه العلاقة تمثّل التجسّد الإنسانيّ فى أعظم تجلّياته .

أعدك أن أكون وطنك

فعدني أن تكون عاصمتي

أعدك أن أكون سفينة أحلامك ...

فعدني أن أكون آخر مرافئك ...

وعدتك أن أكون غيمتك

فعدني أن تكون مطري ...

ومن منطلق هذه العلاقة الحتميّة السببيّة المتشابكة تدعو الشاعرة المرأة الخالقة لتبقي إلى جانب الرجل متكاملي الدور ، فهى رحم ولادتيه الأولى والثانية ، ولذلك تعيش مع الرجل علاقة تكافؤ وتكامل وتساند وتعاضد . وهذه الرؤيا في العلاقة الإنسانيّة اكتسبتها من شراكتها الزوجيّة مع الشيخ عبد الله مبارك - رحمه الله - فاستمدت منها قوّة نفسيّة وفكريّة جسّدتها قولاً وعملاً في الحياة .

كانت نظرته السامية إليها وتقديره لطاقاتها يجعلانه يشركها في مجالسه الخاصّة ، تقول في «صقر الخليج» : «كان دائمًا يشاركني في مجالسه ويخصّص لي مكانًا في ديوانيّته ويستمع إلى آرائي وأفكاري بكل احترام وديمقراطيّة» .

هذا الموقف الرجوليّ الحقيقيّ من أبي مبارك جعل السعاد تنادي بديمقراطيّة حقيقيّة في المجتمع ، دميقراطيّة مختلفة مغايرة ، فهي شعارات ومبانٍ ، وموظّفون ، ومؤسّسات حيّة ، وبنى حقوقيّة ، وإجراءات تضمن حرّيّة الرأي والتحكّم بالمصير . ولكنْ لا حظَّ للمرأة العربيّة ، ولا موقع لها من هذه الديمقراطيّة ، فهي ليست من أفراد هذه الأسرة الدوليّة ، ولأنّ حرّيّة الأنثى تترجم خيانة ، وكلامها في الحبّ زندقة ، فقد دعت إلى ديمقراطيّة تمنح الأنثى حقّ الحياة والتعبير ؛ تقول :

ليست الديمقراطيّة

أن يقول الرجل رأيه في السياسة

دون أن يعترضه أحد

الديمقراطيّة أن تقول المرأة

رأيها في الحبّ

دون أن يقتلها أحد

وهذه الحياة الزوجيّة المبنيّة على الاحترام والتكافؤ وليدة رؤيا إنسانيّة متكافئة ، تميّز بها الشيخ عبد الله «لقد قدّر الشيخ المرأة كقيمة وكإنسانة ، وتحوّلت عنده إلى رفيق درب ، ووسام حياة يتباهى به ويزهو بشموخ الكبار الواثقين بالذات» .

إنّ نَفَسَ العظام يترك أثره الطيّب في الأرض الخصبة ، فتعطي ثمارًا طيّبة توزّع على المجتمع . ومن هذا المنطلق دعت الشّاعرةُ الرجل العربيّ إلى التعامل مع المرأة كشريك ، والنظر إليها كفكر يساعد على التحليل ، وكعصفورة تمثّل له الجمال والرفعة والحريّة ، والتحليق في فضاء قدراتها ، فهي الأمن والسلامة والإيمان والاطمئنان ، وخلاصة النفسيّ في الإصغاء إلى صوت الحنين الدافىء والصادق في أعماق تعبُّد المرأة وتنسُّكها ، فيكونان معًا آدم وحوّاء وتكون الغطاء والملجأ .

﴿ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّنَّ ﴾

أنا قصيدتك المكتوبة بحبر الأنوثة

أنا عصفورتك

أنا جزيرتك

أنا كنيستك

فاسمع أجراس حنيني

وأطرق الباب عليّ في أيّ وقت تريد
وعلّق على أهدابي
أحزانك

وهذه العلاقة الجديدة المبنيّة على المشاركة تتطلّب وجود الرجل الرياديّ الخالق الذى يقدّر في المرأة فكرها ، ويحترم آراءها، ويبطل النظرة الماديّة إليها من وراء نقاب الشهوات ، فلا يرى إلاّ الشكل ، فصرخت من أعماق أنوثتها محرّضةً المجتمع الذكوريّ على واقعه ليلغي فتونه بالجمال الشكليّ، ويركّز على العقل والمنطق :

فلماذا - أيّها الشرقيّ - تهتمّ بشكلي ؟
ولماذا تبصر الكحل بعيني
ولا تبصر عقلي
أنّني أحتاج كالأرض إلى ماء الحوار

جسّدت الصباح في صرختها نساء الشرق الرائدات ، فمنهنّ يبدأ العطاء، وفيهنّ تفنى الأجساد، ولكن لا قيمة للأرض التى لا تعطى، والأرض لا تعطى إن لم تروُ بالماء، وماء الحياة بالنسبة إلى الأنثى الحوار .

والرجل الرياديّ القائد له ميزات استمدّتها من صورة الرجل

المثال ، والزوج الذي شاركها نجاحها وتقدّمها «إذا كان بعض الرجال يشعر بالخجل والغيرة أمام المرأة المثقّفة أو المتعلّمة أو المتكلّمة ، فإنّ أبا مبارك كان يعتزّ بأيّ نشاط ثقافيّ أقوم به ، وبأيّ كتاب يصدر لي ، وبأيّ مؤتمر أشارك في أعماله» .

فالرجل الخالق معجزة ، يساعد المرأة على تخطّي الذات وصقل الجوهر المتأصّل في إنسانيّتها :

لا أحد يعرف معجزاتك

أيّها الرجل الذى حوّلني في ثوانٍ

إلى قطعة شمسٍ

وسبيكة ذهب .

فهو وطن المرأة وامتداد أحلامها ، وعمق وجودها المتجدّد ، يمنح مشاعرها حبًّا صوفيًّا ، تتحطّم على شطآن ولادتها الجديدة أمواج الثورة ، ليموكب كلماتها انسياباً عاطفيًّا ، مترقرقًا إيقاعًا موسيقيًّا داخليًّا وخارجيًّا هادئًا ينبلج من بين يديه كونًا وولادة وحركةً واحتواءً وتمرّدًا .

من إسمك تبدأ جغرافية المكان

ومن عينيك تأخذ البحار ألوانها

ومن ثغرك يولد الليل والنهار

ومن إيقاعات صوتك

أُولد أنا .

والرجل الخالق صديق ، يخلص في معاملته للمرأة كروحٍ وفكر ، ويتحرّر من ذاكرته التراكميّة الغباريّة ، فلا ينظر إلى المرأة كتمثال رخاميّ جميل ، بل يساعدها لتخرج على واقعها المؤلم ، ويكون مرفأ أمان ، وطمأنينة وحبّ وحنان ، ولا يشغلها بعواطف ينطفىء وهجها بالقبل :

(...)

إنّ كلّ امرأة تحتاج أحيانًا إلى كفّ صديق

وكلام طيّب تسمعه

وإلى خيمة دفء صنعت من كلمات

لا إلى عاصفة من قبلات .

من هذه الرؤيا يكون الرجل العطاء العاطفيّ وسهم المستقبل، والأنثى ملجأ وملاذًا ، وخميرة يقظة وطريقًا نحو لا نهاية الفعل الحركيّ، فتعبّر المرأة عن عواطفها وحبّها الذي يولّد المعجزات ، وتشعر بالسعادة والحرّيّة ، وتعانق بكبريائها السماء ، فيمجدّان معًا الحبّ ، ويقدّسان الزواج ؛ لأنّ فيه الأمن والسلام والطمأنينة، فالرجل هو غطاء المرأة العاطفيّ والروحيّ:

نعمة أن تشعر الأنثى بإنسان يغطّيها

ويحميها ... ويعطيها مفاتيح الغيوب

إنّ الرجل الخالق قادرٌ على زلزلة السكون الأنثويّ الفكريّ واقتلاع الموروّثات السلبيّة واختراق حصون العادات والتقاليد التي سوّرت نفسها عبر مرحلة الاستبعاد .

وهذا الاختراق يفكّك ما تراكم من عقد نفسيّة ، ويعيد تركيبها المعنويّ ؛ لتكون قادرةً على السير الأماميّ وحيدة .

والرحيل هنا يحمل معنيين ، الأوّل : سلبيّ ولّده الخوف من البقاء وما يترتّب عليه من تضييق اجتماعيّ، والثاني : إيجابيّ ، يشير إلي قدرة المرأة علي السير واللّحاق بالرجل لترحل معه وإليه في رحلة الحياة .

رأت الشاعرة أنّ الرجل الخالق والمرأة الخالقة يشتركان في قوّة الابتكار ورمزت إلي هذه الخاصيّة عند كلٍّ منهما بكلمة «العطر» :

يمرّ عطرك في مخيّلتي

كسيف من المعدن

يخترق الجدران ... والستائر

يخترقني

يبعثر أجزاء الزمن

يبعثرني

وتتركني أمشي حافية علي زجاج المرايا

وترحل ...

والرجل الخالق معجزة المرأة ، وبوجوده تزدهر ذات الأمّة بعصرٍ ذهبيّ، لأنّه بتفهّمه وطاقاته غير المستعبدة يستطيع أن يكتشف حقيقة المرأة ، ويحفّز في نفسها قوّة الابتكار ، وعندما تستطيع المرأة اكتشاف ذاتها بمساعدة الرجل يقوى كيان الأمّة ويتجوهر العطر في ذاتها . وهذا الرجل ترى فيه الصباح صلة الأصل ما بين «الأنا» و«الأنا» النسائيّة الخالقة ، فتناديه «يا الذي» ، ونصفه بالتفرّد والاستياق .

يا الذي اكتشفت أنوثتي قبل أن اكتشفها

واخترعتني

قبل اختراع النار والشعر

والرجل الخالق «مجنون» في عرف المجتمع كالأنثي الخالقة «المجنونة» لأنّ كلاً منهما يتمرّد على الأعراف غير مكترثٍ بالقوانين والتقاليد البالية ، إنّه جنون العباقرة الذين يتجرّدون من الاهتمام بالتفاهات ، ويبّون لقاء الغيب حيث يتلقّون المعرفة ، وبالمعرفة تتسامى ذواتهم عن ماديّات المجتمع واعتباراته السخيفة .

ولكنّني لم أعرف مجنونًا أعقل منك

ولا عاقلاً

أكثر منك جنوناً

هذا الرجل الخالق لا يكتفي باكتشاف المرأة ودعوتها إلى التمرّد . إنّه الرفيق الذي يملأ الفراغ الروحيّ في نفسها بالحقيقة والمغامرة لو عدة وبالحرّيّة الحقيقيّة المستقبليّة .

أيّ رجلٍ أنت يا سيّدي

(...)

فبعد كلّ يومٍ أقضيه معك

أعود ... وأنا ممتلئة بالشمس

ومضرّجة بالبروق

وفي عيني تركض خيول الحرّيّة .

هذه رغبة الصباح في ولادة مجتمع عنصراه امرأة استثنائيّة ورجل استثنائيّ ؛ يتكاتفان ويتكاملان ، يفجّر كلّ منهما في الآخر القدرات الكامنة ويحفّز أحدهما الآخر علي الترقّي اللامحدود ، ويبلغان درجة من التسامي يصعب أن تحدّ بكلمة أو وصف ، فيكون التكامل بينهما أفصح من الكلام :

لم أجد ... يا حبيبي

(...)

كلمة ... تستطيع أن تقولني

أو مفردة ... تستطيع أن تقولك

وفي تواجد هذا الثنائيّ الخالق يحصل التفاهم الروحيّ ، وتكون المرأة أداة المعجزة التي أراد الرجل الخالق حدوثها ، والواسطة بين الرجل الخالق والمرأة الخالقة يدا الرجل القويّتان .

تركّز الشاعرة في قصائدها على هذه العلاقة الوجدانيّة الروحيّة بين المرأة والرجل ، وتعطي رومزًا وصورًا متعدّدة لهاتين اليدين ، ففى إحدى الصور تعتبرهما ساحلاً من الرمل تأوي إليهما عندما تضربها عواصف الحياة ، فتشعر بالأمن والاطمئنان باللجوء إليهما .

وتبالغ السعاد في تصوير أهميّة اليدين ، فتشبّهما بالنخيل الذي أكلت منه السيّدة مريم العذراء يوم ولدت السيّد المسيح (عليه السلام) ، حيث جاء فى القرآن الكريم :

﴿وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا﴾

ويدا الرجل الاستثنائيّ تلجأ إليهما أنثى الصباح في لحظة المخاض والولادة ، فيأتيها الوحي الفكريّ والغذاء المعرفيّ الإلهيّ.

إنّ يدي الرجل في شعر السعاد ترمزان إلي إيمانها بالحركة الفاعلة ، وبالحركة تكون الحياة

يداك

هما الساحل الرمليّ الذي أتمدّد عليه

عندما تضربني العاصفة

وهما النخلتان اللتان أهزّهما

عندما يأتيني المخاض

فتتساقطان عليّ رطبًا جنيًّا

هذا هو الرجل الذي تريده الأنثى الشاعرة ، وتثبت تمرّدها وقدرتها معه على الخروج والتجاوز والتخطيّ ، إنّه المثال الذي سعت إليه بعيداً عن مقرّرات القبيلة والآراء المتوارثة ، والأفكار الإجراميّة ، إنّه الهدف .

يا سيّدي

أنت الذي أريد ...

لا ما تريد تغلب ووائل

أنت الذي أحبّه

ولا يهمّ مطلقًا

إن حلّلوا سفك دمي

واعتبروني امرأة

خارجة عن سنّة الأوائل .

إنّ الوجود العقليّ المؤسّس على التكامل والاحترام والإرادة يولّد علاقة إنسانيّة حقيقيّة قوامها الشجاعة والقوّة ، والحبّ ذو البعد الإنسانيّ الشموليّ الكونيّ ، يرتفع بهما عنصرا الحياة معه فوق الزمان ، والمكان ، بحريّة مسلّحة بفكّر إنسانيّ ، يلغي الحدود ، وينزع الحاجة إلى جواز سفر لتحكم لغة التفاهم والتخاطب بين الأنا والآخر :

حين أكون بحالة عشق

أشعر أنّ العالم أضحى وطني

وبإمكاني أن أجتاز البحر ،

وأعبر آلاف الأنهار

وبإمكاني ...

أن أتنقّل دون جواز

كالكلمات ... وكالأفكار ...

لقد اخترقت سعاد الصباح بصورها حصون الماضي ، واقتحمت عرفًا أشبه بمحميّة يصعب الاقتراب منها أو التصدّي لها، فبدا المجتمع العربيّ في شعرها بكلّ سلبيّاته ومساوئه وأمراضه ، إنّه يعيش حالة من الركود والسكون، وإنسانه ذو بعد واحد يمارس وجوده مراوحًا فى مكانه، فلا تغيير ولا تعاقب في

دورة حياته الفصلية بل سكون عيش، وراحة فكر، وهذه علامات الإصابة بالإغماء الإرادى، ليستسلم إلى هروبه من ديناميكية العقل، وتفاعلاته، وانصهاره مع الوجود والكون، إنه خيار الشعوب البليدة المستكينة إلى قرارها بحرية مزعومة.

تحولت المرأة بشعرها وبنظرتها ذات البعد الاجتماعى من كائن مشلول ألغيت فاعليته إلى عالم يضج بالحياة لتصير عنصر تحويل وخلق لحركة الولادة الأبدية للحياة فى رحم الكون، وصار الرجل إلهًا مشاركًا المرأة فى عملية الخلق المعنية من أجل تأسيس مجتمع إنسانىّ كونىّ شامل مبنىّ على التفاهم، والالفة والمحبة والمساواة والتسامح.

* * * * *

الفهرس

١ - مقدمة : سعاد الصباح ٣
٢ - الثورة والتمرد فى شعر سعاد الصباح ٩
٣- صورة التمرد في قصيدة سعاد الصباح ٧١
٤ - الرفض والتمرد فى شعر سعاد الصباح ٩٧

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الإيداع : ١٣٧٩٦/ ٢٠٠٤

I.S.BN. 977 - 01 - 9181 - 7

التمرد

في شعر

سعاد الصباح

الأدب الرومانسي أدب ثائر متمرد منبثق من الآه التي تجرح الفؤاد. رغم أنه نادى بإعلاء القيم الفردية والذاتية. إلا أنه وُصف بأدب الثورة. فالثورة هي منهجه وروحه وخاصة للمبادئ الإنسانية. فالثورة عنده أبدية غايتها المثلى إقرار حرية الفرد في المجتمع. وقد أثبت التاريخ مدى التصاق الكتاب الرومانسيين بالواقع وأنصارهم بالمجتمع فهم بعيدون كل البعد عن الفوقية والقوقعة ضمن الأنا الشاعري وجلوسهم في الأبراج العاجية والابتعاد عن الإنسان. ولا يمكن تجاهل الدور الإيجابي الذي يلعبه الكتّاب الرومانسيون في التأكيد على المبادئ الإنسانية والاجتماعية فمنهجهم الإنساني دائماً يصحح العلاقة بين الفرد والمجتمع وبين الفرد والموضوع ويؤكد على أهمية الإنسان كهدف بحد ذاته.